



جامعة الملك سعود
King Saud University



كئبة القرآن الكرم وعلموه
Chair of Qur'anic Sciences

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك سعود
كرسى القرآن الكرم وعلموه

في لسانيات النص وتحليل الخطاب نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكرم

بحث مقدم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

١٤٣٤/٤/٦ هـ - ٢٠١٣/٢/١٦ م

إعداد

أ.د. عبد الرحمن بودرع

المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية
International Conference for the development of Quranic Studies



**في لسانيات النص وتحليل الخطاب
نحو قراءة لسانية
في البناء النصي للقرآن الكريم**

بحث مقدم

للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية

١٤٣٤/٤/٦ هـ - ٢٠١٣/٢/١٦ م

إعداد

أ.د. عبد الرحمن بودرع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السيرة الذاتية

الاسم: عبد الرحمن بودرع

تاريخ الميلاد: ١٩٥٦ بالمغرب

مؤسسة التدريس الحالية: جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب الإطار: أستاذ التعليم العالي (أستاذ دكتور).

بريد إلكتروني: abderrahmane39@hotmail.com

الشهادات المُحصَلُ عليها :

- دكتوراه الدولة في علوم اللغة سنة ١٩٩٩م، بميزة جيد جدا، من جامعة محمد الخامس بالرباط.
- دبلوم الدراسات العليا في علوم اللغة سنة ١٩٨٧م، بميزة جيد جدا من جامعة فاس
- دبلوم الدراسات المُعمَّقة، في علوم اللغة، سنة ١٩٨١م، بميزة مستحسن، من جامعة فاس
- الإجازة في الآداب سنة ١٩٨٠م، بميزة مستحسن، من جامعة فاس

مهام علمية وتربوية:

- رئيس فرقة البحث الأدبي والسيميائي.
- مُشرف على وحدة: لسانيات النص وتحليل الخطاب، في الدراسات العُلِّيا (الماستر)

- منسق هيئة الإشراف على الدكتوراه في اللسانيات والترجمة والتواصل، بكلية آداب تطوان.

الأنشطة العلمية

- المشاركة في الندوات والإعداد لها: شارك المعني بالأمر في ٥١ ندوة وطنية ودولية ومقابلة تلفزيونية. ومنها:
- المشاركة في تأطير دورة تكوينية جامعية في موضوع: القرآن الكريم وخطابه المتجدد بتاريخ: ١٦-٢١، أبريل ٢٠٠٧، من تنظيم المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمدرسة العليا للأساتذة بتطوان والمركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بتطوان/ المشاركة في جل الملتقيات السنوية للقرآن الكريم، التي ينظمها المجلس العلمي بمكناس/المغرب.
- المشاركة في أشغال مؤتمرات وطنية ومغربية في "الإعجاز العلمي للقرآن والسنة" الذي تنظمه الجامعة والمجالس العلمية لشمال المغرب/ المشاركة في الندوة الدولية "الصحابة الكرام في التراث المغربي الأندلسي" التي نظمتها الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، بطنجة يومي صفر ١٤٣١هـ/ فبراير ٢٠١٠م، بموضوع: « منهج علماء الأندلس في الترجمة للصحابة وتحقيق مواقفهم، ابن عبد البر القرطبي والقاضي أبو بكر المعافري، أنموذجين » - ندوة الحج الكبرى لسنة ١٤٣١هـ في محور: التوعية في الحج، التي نظمتها وزارة الحج السعودية وكان موضوعي الذي شاركته به: "التوعية في الحج، عوائقها العامة وسبل حلها./المشاركة في المؤتمر الأول للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة في موضوع اللغة والهوية ١٤٢٣/٢٠١٢ .

الكتب والمؤلفات:

- الأساس المَعْرِفي للغَوِيّات العَرَبِيّة، نادي الكتاب لكلية الآداب بتطوان، الطبعة الأولى، مارس ٢٠٠٠، الطوبريس طنجة، المغرب.
- اللغة وبناء الذات (تأليف جماعي)، منشورات كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد ١٠١، السنة ٢٤، جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ، يونيو / يوليو ٢٠٠٤ م .
- جوامع الكلم في البيان النبوي، نشر مكتبة سلمى، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م
- من ظواهر الأشباه والنظائر بين اللغويات العربية والدرس اللساني المعاصر، منشورات حَوَليّات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية : ٢٥، الرسالة : ٢٢٧، ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥ م
- مَنهَجُ السِّياق في فَهْمِ النصِّ القُرْآنِيِّ والحَدِيثِيِّ: مَنشورات كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، العدد: ١١١، السنة: ٢٦، ط ١، المحرم ١٤٢٧ هـ، فبراير ٢٠٠٦ م .
- من قضايا النظرية اللغوية العربية، منشورات حَوَليّات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية رقم: ٢٨، الرسالة رقم: ٢٦٧، السنة: ١٤٢٨ هـ- سبتمبر ٢٠٠٧ م
- المنتقى من فصيح الألفاظ للمعاني المُتداوِلة، منشورات كلية الآداب [جامعة عبد المالك السعدي]، مطبعة الخليج العربي، تطوان - المغرب، ط ١، ١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨ م

- الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط ١، ذو الحجة ١٤٣٠هـ - دجنبر ٢٠٠٩م .
- مكانة مكة والمجاورة فيها في كتابات العلماء، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .
- إتحاف الناظر بنفاضة الضمائر وعُصارة الخواطر، منشورات جامعة عبد المالك السعدي/كلية الآداب/تطوان/المغرب، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
- الأسس المعرفية للغويات العربية، ط. دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٢م .
- ويوجد قيد الطبع كتاب: الخطاب القرآني ومناهج التأويل. نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، نُشر الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب.
- يوجد أيضاً قيد الطبع: في الرحلة الحجازية، مط. الطوبريس، طنجة المغرب

مقالات علمية في مجالات محكمة وعامة وطنية ودولية :

٣٤ مقالة: ومنها :

- أثر السياق في فهم النص القرآني مجلة الإحياء، التابعة للرابطة المحمدية للعلماء، ع: ٢٥، جمادى ٢، ١٤٢٨هـ، يوليو ٢٠٠٧م/القرآن الكريم، بين خصوص اللسان وعموم الرسالة، مقال نشر في كتاب جماعي عنوانه "رسالة القرآن"، بمناسبة الاحتفال بإنجاز مُصحف قطر ويُدء تداوله، من إعداد إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، وزارة الأوقاف، الدوحة، قطر، ط ١، ربيع الأول ١٤٣١هـ، فبراير ٢٠١٠م / القرآن الكريم ومناهجُ الدرس الحديث، منهج السياق البياني أنموذجاً، مقال نُشر في مجلة الهدى، وهي مجلة

في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم

سنوية يُصدرها المجلس العلمي لطنجة، ع: ٢، محرم ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠م /
التوعية في الحج: عوائقها العامة وسبل حلها، وهذا نص المشاركة التي
شاركت بها في ندوة الحج الكبرى بمكة المكرمة، وقد نُشرت المُداخلة في
كتاب: التوعية في الحج، مط. السروات بجدة، ط ١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

العضوية في لجان المؤتمرات والندوات :

عضو اللجنة العلمية للمؤتمرات المغاربية والدولية في "الإعجاز العلمي
للقرآن والسنة" الذي نُظم بكلية العلوم بتطوان، بتعاون بين الكلية والجامعة
والمجالس العلمية لشمال المغرب، للسنوات: ٢٠٠٥ - ٢٠٠٧ - ٢٠١٠م
على التوالي

جوائز، وتكريم... : جائزة البحث العلمي :

- الحصول على جائزة الشرف المتميز تكريماً، وتقديراً للعطاء العلمي داخل
الجامعة، الجهة المانحة: رئاسة جامعة عبد المالك السعدي، تطوان،
المغرب، ثلاث جوائز عن السنوات: ٢٠٠٩-٢٠١٠-٢٠١١، على التوالي.

ملخص البحث

يقومُ البحثُ على فكرة منهجية وهي استنطاق أحدث مناهج علم النص وهو "لسانياتُ النص وتحليلُ الخطاب"، بخصوص ما يُمكنُ أن تُقدمه من جديد في تحليل النص واستكشاف بنياته الداخلية والوقوف على بلاغة تماشكه وجماليات انسجام عناصره، والوقوف على معانيه الكلية التي لا يقوى نحوُ الجُمَل على استكشافها وبيانها.

ويُحاولُ البحثُ لتحقيق الغرض المُشار إليه، أن ينظرُ إلى نُصوص القرآن الكريم في ضوء تصورات علم لغة النص ومناهجه وأدواته، وليُحصص مدى قدرة المنهج على كشف بنية النص ودلالاته الكلية ووظيفته التي تُوافق مقاصد واضعه.

ومن المعلوم أن النص القرآني تناوله بالبحث والتفسير والتأويل علماء الفقه والأصول والتفسير والبلاغة، ولكن كان لعلماء "علوم القرآن" النصيب الأوفر في مقارنة النص القرآني، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تُحيطُ بالنص الكريم، من جوانب متعددة وتستكشف قيمه الدلالية وجوانبه الجمالية وعلاقاته الكلية، فكان هذا العلم مؤهلاً لأن يكون أقرب إلى النهج الذي نهجته لسانيات النص وتحليل الخطاب.

وسيتعرضُ البحثُ لتعريف المُصطلحات المتعلقة بلسانيات النص وتحليل الخطاب (نص، خطاب، لسانيات النص، تحليل الخطاب) وينتقي من بعض المصادر التي ألفت في علوم القرآن ما يتناسب والمنهج اللساني النصي، من مفاهيم وأدوات، لبناء مقارنة نصية متكاملة تُثبت مدى التقارب والالتقاء بين كثير من الأنظار اللغوية العربية القديمة والمفاهيم اللسانية

في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم

الحديثة، وذلك لأن "مناهج التحليل اللساني" تُعد قاعدةً كبرى من قواعد المعرفة، وأساساً مكيناً من أسس استكشاف أعماق النص ودلالاته البادية والخفية.

المقدمة

يعرض هذا البحث لتطبيق قواعد ونظرات من لسانيات النص وتحليل الخطاب، على نصوص من القرآن الكريم من خلال رؤية علماء القرآن وبلاغية القدماء، وذلك لإخراج المعرفة اللغوية من إطارها النظري المسطور في مُصنّفات النحو واللغة والبلاغة إلى ميدان التطبيق على نصوص بليغة لها قيمة عمليّة وقوة إنجازية عالية.

ومن أجل ذلك فقد عمد البحث إلى استنطاق أحدث مناهج اللسانيات وهو "لسانيات النص وتحليل الخطاب"، بخصوص ما يمكن أن تقدمه من جديد في تحليل النص واستكشاف بنياته الداخلية والوقوف على بلاغة تماسكه وجماليات انسجام عناصره، والوقوف على معانيه الكلية التي لا يقوى نحو الجمل وحده على استكشافها وبيانها. وذلك لما وُصفت به هذه المناهج اللسانية النصية من اكتشاف بعض خصوصيات النصوص، فلم يعد الاهتمام في تحليل النص محصوراً في البحث في الأصوات والمُفردات المعجمية والتراكيب والجمل، ولكنه جاوز ذلك إلى افتتاح مستوى أكبر هو البنية العامة للنص، وتكمن أهمية منهج تحليل هذا المستوى الأكبر، في أنه يُقدم معايير "العلمية" و"الموضوعية" في الدراسة؛ لأنه ينبثق من الموضوع المدروس؛ وهذا لا يتوفر إلا إذا كان المنهج نفسه نصياً، أي إذا كان المنهج من جنس الموضوع ومن مادته، وفي ذلك نوع من التفاعل المعرفي بين المنهج والنص، فالنص يحكم على المنهج بالانفتاح والحركية والاستجابة الموضوعية له. وفي

ذلك أيضاً إثباتاً لسيادة النص وهيمته على المنهج القارئ وأداة القراءة ومُصطلح الوصف والتفسير.

ميزة "نحو النص" أو "لسانيات النص" أو "علم النص"، في أنه أفاد من نحو الجملة، مَبْنِيٍّ وَمَعْنَىٍّ، ومن الدراسات الأسلوبية، ومن المناهج والمعارف السابقة، ولكنه أضاف إلى تلك المناهج ما يُثبت نصية النص وبلاغة الخطاب، من غير أن يقتصر على المناهج التي كانت تُجزئ النص ثم تقف عند الأجزاء فقط، فكل ما ساعد على تصور النص كياناً لغوياً متعدد المستويات، مُكوناً من أجزاء مترابطة، أو أنظمة مُتشابكة. فإنشاء علم للنصوص هو المنهج الأنسب للخطاب المدروس؛ لأنه منهج يستمد مادته وقوانينه ومفاهيمه من تشابك الأنظمة. وما ذلك إلا لأن النص نظام واقعي فعّال، «على حين نجدُ الجملَ عناصرَ من نظام افتراضي... والجملة كياناً "قواعدي" خالصٌ يتحدد على مستوى النحو فحسب، أما النص فحقه أن يعرف تبعاً للمعايير الكاملة للنصية (Textuality)»^(١)، ومنها سياق الموقف أو دوافع الموقف (Contextual motivation)^(٢).

(١) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط. ٢، ٢٠٠٧م، ص: ٨٩-٩٠.

(٢) أورد روبرت دي بوجراند المعايير السبعة التي تجعل من النص نصاً وأساساً لإنتاج النصوص واستعمالها، وهي السبك (أو التراطُ انحوي)، والالتحام (أو التراطُ المفهومي والمعنوي)، والقصد (قصد المتكلم إيصال رسالة إلى المُخاطب)، والقبول (قبول المُخاطب للنص من حيث هو كياناً مُنسباً مُتلاحماً)، ورعاية الموقف (ويتضمنُ العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف سائد)، والتناص (ويتضمنُ العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به)، والإعلامية (الإخبار). انظر: النص والخطاب والإجراء، ص: ١٠٣-١٠٥.

وينبغي للنص «أن يتصل بموقف يكون فيه، تتفاعل فيه مجموعة من المراكز والتوقعات والمعارف، وهذه البيئة الشاسعة تُسمى سياق الموقف Context، أما التركيب الداخلي للنص فهو سياق البنية Co-text .

ولكن صلة علم لغة النص بالدراسات اللسانية الحديثة لا يعني أنه وُلد في كنفها حصراً؛ فهو - أولاً وقبل كل شيء - علم الطبع والتذوق للعربية، ولهذا فلا يُقتصر على علم لغة النص في نسخته الأعجمية من أجل تحليل النص العربي البليغ؛ لأنه لا يقود بالضرورة إلى فهم أسرار النص إلا على وجه الاستثناس المنهجي دون العلم بكُنه النص في أصله العربي المبين. أما تحليل النص في العلوم العربية والإسلامية فقد داخل كل فروع المعرفة. فعلم النحو في مقاصده تحليل للنص في مرحلة أولى من مراحل لا تستقل بنفسها؛ وهو في هذه المرحلة نظراً في العلاقات والروابط بين الكلمات، للوقوف على بنية الكلام ونظمه، ويستعين به الفقهاء وعلماء الدراية والمفسرون والنقاد لضبط دلالات النص ومقاصده، فإذا غابت العلاقات والروابط تفكك النص وداخله العموض والاضطراب وفقد شروط البناء اللغوي. أما البلاغة فهي أدخل علوم الآلة في تحليل النص؛ لأن «كل مفردات هذا العلم في صميم علم تحليل النص، ابتداء من مقدمة الفصاحة والبلاغة، وانتهاء بأصغر فن بديعي، كل هذا وسائل وأدوات تُعين على استكشاف جوهر النص... واعلم أن كل نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلى المعاني»^(١)، وليست

(١) محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط. ٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص: ١٤.

غُلومُ الآلة التي هي في الحقيقة أدوات وتقنيات لتحليل النصوص، إلا كينيات وأحوالاً وأوعيةً دقيقةً تحملُ معاني النص وعوالمه. وتدخلُ في هذه الكينيات والأحوال^(١) والهَيئاتُ البلاغَةُ القرآنيةُ التي هي الطريقةُ العاليةُ في العبارة عن المقاصد.

بناءً على المنهج المشار إليه أعلاه، يركنُ الباحثون إلى تحليل الخطاب بمنهج نصي واقعي يستندُ إلى سياق الموقف وبساط الحال ومرجعية النص، ويقفون عند الإعراب ثم يتجاوزونه بذلك ولا يلتزمون به وحده؛ لأن منهج صناعة الإعراب وحده قاصرٌ عن التحقيق، ولا يلزمون منهج التحليل بالجمل؛ لأن الجمل كيانٌ لغوي محدودٌ، وفيه الممكنُ وفيه المُفترَضُ؛ إذ يُمكنُ تصورُ جمل مُتكلفة، إما لكونها أطولَ أو أعقدَ أو أكثرَ توابعَ أو أكثرَ ابتداءً مما يُمكنُ قبوله، أو لكونها فارغةً من المعنى، أو غيرَ ذات أثر عملي في الأداء... ولذلك فتحليل الخطاب بنحو الجمل يبتعدُ بالنص عن سياقه الواقعي وأبعاده التداولية ويركنُ به في زاوية التجريد والشكلانية.

وسيُحاولُ هذا البحثُ لتحقيق الغرض المشار إليه، أن يستدعي بعضَ "المعالجات النصية" العربية القديمة المتفرقة، للقرآن الكريم، ويجمع بينها في بناء عام لإعادة قراءتها في ضوء تصورات علم لغة النص الحديث

(١) عبارة الكينيات والأحوال، أوردها ابنُ خلدون في المقدمة، في الفصل السادس والأربعين: فصل في أن اللغة ملكةٌ صناعيةٌ. (مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م)

ومناهجه وأدواته، وليمحض مدى قدرة تلك المعالجات النصية القديمة على كشف بنية النص ودلالاته الكلية ووظيفته التي توافق مقاصد واضعه، ولكن من غير اعتقاد بأن معايير علماء النص المُحدثين صالحةً مُطلقاً لتحليل النص القرآني؛ إذ إن تلك المعايير الجزئية الحديثة إنما استخرجت في الأصل من نصوص محدودة مُقيدة بقيود الزمان والمكان والظروف المُحيطة والأخطاء البشرية. وإنما الشأن في ذلك بتصحيح ما يعترى المعايير الحديثة من نقص، وتسدده بما استنبطه علماء البلاغة والتفسير وعلماء علوم القرآن الكريم، من النص القرآني، من معايير نصية وافية. فنحصل، من اتحاد علوم النص العربية وعلم لغة النص الحديث على علم موحد يكشف غوامض النصوص ويفك رموزها ويستكنه أسرارها، فلا بد أن يأخذ العلم القديم بيد العلم الحديث، ليزدهر المنهج النصي ويتطور وتتفتح أمامه أبواب التحليل، فلا يغرق النص في لُجج العُجمة فتمحي معالمه.



ومن المعلوم أن النص القرآني تناوله بالبحث والتفسير والتأويل علماء الفقه والأصول والتفسير والبلاغة والنحو^(١)، ولكن علماء "علوم

(١) وإلى ذلك أشار د. تمام حسان، عندما بين أن فهم النص القرآني الفهم الصحيح لا يحصل إلا: «في نطاق ما أنشأه علماء العربية واللغة والبلاغة وغيرها من مناهج وطرق للبحث. وإذا التزم الباحث بجهود العلماء السابقين... فلا بد أن يتناول النص القرآني الكريم بمصطلح هؤلاء العلماء؛ لأنه لا يستطيع أن يستخرج حقائق التحليل العلمي إلا بواسطة المصطلحات المذكورة». انظر: تمام حسان:

==

القرآن" والمُفسرينَ البلاغيينَ للقرآن الكريم، كان لهم النصيبُ الأوفَرُ في مُقارَبَةِ النصِّ القرآني، وذلك بتوظيف كثير من العلوم والآليات والأدوات التي تُحيطُ بالنصِّ الكريم، من جوانبٍ متعددة وتُستكشفُ قيمه الدلالية وجوانبه الجمالية وعلاقاته الكلية، فكان هذا العلمُ مؤهلاً لأن يكونَ أقربَ إلى النهج الذي نهجته لسانياتُ النصِّ وتحليلُ الخطاب، وهو صالحٌ لأن يُصاغَ منه أنموذجٌ تحليلي يستخرجُ أعماقَ النصِّ ويكشفُ قيمه الجمالية، بل ليُكتشفَ به مزيدٌ من المزايا الجمالية التي تنطوي عليها اللغة العربية ذاتها.

المُصطلح:

وسيتعرضُ البحثُ لتعريف المُصطلحات المتعلقة بلسانيات النصِّ وتحليل الخطاب (نص، خطاب، لسانيات النصِّ، تحليل الخطاب) وينتقي من بعض المصادر التي ألفت في علوم القرآن ما يتناسبُ والمنهج اللساني النصي، من مفاهيم وأدوات، لبناء مُقاربة نصية متكاملة تُثبتُ مدى التقارب والالتقاء بين كثير من الأنظار اللغوية العربية القديمة والمفاهيم اللسانية الحديثة، وذلك لأن "مناهج التحليل اللساني" تُعد قاعدة كبرى من قواعد المعرفة، وأساساً مَكِيناً من أسس استكشاف أعماق النص ودلالاته البادية والخفية.

==

مُصطَلَح "النص" له دلالاتٌ، تتفاوتُ بينَ العمومِ والخصوصِ، فهو عندَ عُلَماءِ الأصولِ نوعٌ من أنواعِ دلالةِ اللفظِ على مَعْنَاهِ، والأصلُ فيه أنه مصدرٌ للفعلِ نصُّ يُنصُّ بِمَعْنَى الرِّفْعِ والإِظْهَارِ والإِسْنَادِ، ونصُّ القرآنِ ونصُّ السنةِ أي ما دلَّ ظاهرُ لفظهما عليه من الأحكامِ.

أما عندَ المحدثينَ فالنصُّ النسيخُ العامُ الذي يتألفُ من خيوطٍ متناسقةٍ على هيئةٍ مخصصةٍ، ويتعدى الجملةَ باعتباره سلسلةً من الجُمَلِ يضبطُها مبدآن: مبدأ الوحدةِ ومبدأ الاتساقِ والتناسقِ. وقد استعملَ مُصطَلَحُ النصِّ في الأدبياتِ اللسانيةِ تارةً مُرادفًا للخطابِ (بوصفِ الخطابِ نصًّا وظروفَ إنتاجِ)، وتارةً بوصفه سلسلةً جمليَّةً مُجرّدةً معزولةً عن ظروفِ إنتاجِها^(١). فالتعريفاتُ التي وردَ عليها النصُّ حديثًا، كثيرةٌ ومختلفةٌ^(٢)؛ فبعضُها يقصرُ النصَّ على المُنجزِ كتابةً، وبعضُ آخرٍ يجمعُ في تعريفِ النصِّ بينَ المكتوبِ والمُلفوظِ، ومنها ما يُراعي في التعريفِ جانبَ الوظيفةِ التواصليةِ، ومنها ما يهتمُ بعنصرِ التتابعِ بينَ ألفاظِ النصِّ، ومنها ما يركّزُ على الوظيفةِ الدلاليةِ للنصِّ^(٣).

(١) يُنظَرُ في الفرقِ بينِ النصِّ والخطابِ: أحمد المتوكل: الخطابُ وخصائصُ اللغةِ العربيةِ، دراسة في الوظيفَةِ والبنيةِ والنمطِ، الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر، دار الأمان الرباط، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص: ٢١-٢٢.

(٢) يُنظَرُ في إشكالِ كثرةِ التعريفاتِ واختلافها: محمود حسن الجاسم: مفهوم النصِّ في العربية بينَ القديمِ والحديثِ، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع: ٣١، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ/أبريل ٢٠١٠م، ص: ٤٥-٦٤.

(٣) يُنظَرُ في الفروقِ بينِ تعريفاتِ الباحثينَ للنصِّ: سعيد حسن بحيري: علم لغة

وسيستخدم هذا البحث مصطلح النص بمغناه الحديث لما فيه من الشمول والعموم، ولما فيه من مراعاة الخصائص الرئيسة التي لا يكاد يخلو منها نص من النصوص.

أما مصطلح "الخطاب" فيشار به إلى كيان لغوي يتعدى الجملة من حيث الحجم، ويلابس خصائص غير لغوية، دلالية وتداولية وسياقية، ويندرج في حيز الإنجاز أكثر من اندراجه في حيز القدرة اللغوية، ويتخذ موضوعاً لدرس لساني منفصل يُدعى بلسانيات الخطاب أو تحليل الخطاب في مقابل لسانيات الجملة. فيدخل في الخطاب الكلام والمتكلم وبيئة التنزيل وسياقه وأساليب التخاطب. والخطاب القرآني يتوجه إلى وعي المخاطب لتغيير شأنه وحاله والتأثير فيه وإقناعه بالمضمون الجديد والرسالة الجديدة، ويمتاز الخطاب القرآني عن الخطاب البشري، في أنه خطاب رباني مُتعالٍ يحمل وحيًا وإعجازاً وقُدسية نص يُتعبدُ به.



==

النص، وإبراهيم خليل: في نظرية الأدب وعلم النص، والأزهر الزناد: نسيج النص، وصلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، وأحمد عفيفي: نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي...

منهج لسانيات النص وتحليل الخطاب

تحول الأنساق المعرفية:

لقد اقتضى تحول الأنساق المعرفية^(١) وتطورها وحركيتها الانتقال من نحو الجملة إلى علم لغة النص أو لسانيات النص، ومن النظرة الجزئية للخطاب وما يرافق ذلك من هيمنة الوقوف عند حدود الكلمة المفردة والحالة المبتسرة إلى النظرة الكلية الشاملة للنص المكتوب والخطاب المنجز، وإلى التحليل النقدي للخطاب، وأصبح تجاوزُ الجزئي إلى الكلي طريقة في التناول ومنهجاً في التحليل، وسمة من سمات الفكر والثقافة في هذا العصر، يكشفُ الأدبُ بأجناسه وإبداعاته ونصوصه، ويبرهنُ على نصيته وکليته وتناسق أجزاءه وأنسجامها. فقد أحرزت اللسانيات النصية وتحليل الخطاب والأسلوبية والشعرية الحديثة والتحليل التداولي للخطاب تقدماً معرفياً ومنهجياً؛ إذ أتاح للباحثين والقراء أن يقفوا في النص المدروس على عناصر وخصائص وعلاقات لم يكن بوسعهم الوقوف عليها بنحو الجملة أو لسانيات الجملة.

لسانيات النص تؤدي إلى اكتشاف بلاغة الخطاب والوقوف على جمالياته وقيمه البلاغية المتجددة، التي لا يقوى نحو الجمل المحدود

(١) في مسألة تحول الأنساق المعرفية يُرجعُ إلى: صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنش-لونجمان، ط ١، ١٩٩٦م. ص: ٢-٦، ص: ٧-١٣.

على استخراجها، وأتاحت لسانيات النص الانفتاح على مجالات معرفية وثقافية مختلفة، ولم تعد دراسة اللغة منحصرَةً في دائرة الأصوات والتركيب؛ ولكنها في ظل لسانيات النص وتحليل الخطاب انفتحت على الأنساق المعرفية؛ لأن اللغات الإنسانية تمثل مرتكزاً رئيساً للثقافة ومرآة حقيقية لها^(١).

النسق والبنية، في دراسة النص

يبدو أن الاتجاه النسقي في التفكير العلمي، يميل إلى تحليل النص بدلاً من الجملة والعبارة في ذاتها، ويميل إلى البحث عن العلل والأسرار وراء الألفاظ والظواهر^(٢). وقد صرح حازم القرطاجني بشيء من هذه الملامح المنهجية في الصناعة البلاغية؛ إذ قال: «فإني رأيت الناس لم يتكلموا إلا في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة، فتجاوزت أنا

(١) في علاقة اللسانيات بالثقافة والمعرفة وأهمية البعد الثقافي في البحث اللساني، يُنظر: عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص: ٩-٢٨.

(٢) أشار الباحث البلاغي محمد العمري في كتابه: البلاغة العربية، إلى أن الاتجاه النسقي في منهج علماء اللغة والبلاغة والنحو تجلّى في التوجه نحو التأليف في الأسرار، نحو: سر صناعة الإغراب لابن جني وسر الفصاحة لابن سان الحفاجي وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والأصول، ككتب أصول الفقه وأصول النحو وغيرها.

يُنظر: محمد العمري: البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٩٩م، ص: ١٣.

تلك الظواهر بعدَ التكلم في جُمل مُقنعة مما تعلقَ بها إلى التكلم في كثير من خفايا هذه الصناعة ودقائقها...»^(١).

وعليه، فإن العناية بالنسق والنظام والعلاقات التي تربط أجزاء النص بعضها ببعض، ليست وليدة هذا العصر، عصر اللسانيات والعلوم الإنسانية، ولكنها وجدت من قبل في اهتمامات علماء التفسير وعلوم القرآن، المنهجية وفي طرق تناؤلهم للنص القرآني. فجاءت علوم القرآن بوصفها آليات معرفية وُضعت في الأصل لإعادة إنتاج النصوص في التراث وقراءة تلك النصوص بها، وهي آليات متكاملة متفاعلة لا تعرف الحدود الفاصلة بينها.



لماذا النص القرآني بالذات؟

ولماذا نصية القرآن؟ الجواب القريب: أن النص القرآني عماد الحضارة الإسلامية، ومؤسسها، أما التأويلات المعاصرة التي تحوم حول القرآن الكريم ولا تقرب النص، فلا تتخذ بالضرورة منهجاً لقراءة النص القرآني؛ لأنها لا تتمتع بمرجعية شرعية تُبويها المقعد اللائق في تفسير دلالات النص وتأويله، إلا بالقدر الذي تلتزم بخصوصية هذا النص، وتوظف المناهج الحديثة بما يسمح لها بملامسة المقاصد التي يُصرح بها النص ويقوم عليها.

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص: ١٨.

وقد تعرض النص القرآني لحَمَلَة تأويلية^(١) واسعة من قبل المذاهب والفرق والاتجاهات المُختلفة منذ القديم، ووصل الاختلاف بينها في هذا الأمر إلى درجة التعارض والانقسام، ويعودُ هذا الاختلافُ في جزء كبير منه إلى اختلاف في منهج فهم النص والآليات المُعتمَدة، وهي آليات جاهزة تُسقطُ فهمًا خاصًا على النص القرآني، وتكونُ في الغالب بعيدةً عن منظومة مقاصد الشريعة الإسلامية^(٢)، لأنها مُستمدّة من نظرية عامة في الفهم، واستُخدمت هذه النظرية في الغرب تحت مُصطلح "الهرمنيوطيقا"، الذي ارتبطَ في بداية نشأته بالنصوص المقدسة.

وتبوأ تأويل النص القرآني في الفكر العربي، في عصر النهضة وما بعده، موضع الصدارة، حيثُ أثّرت تساؤلاتٌ حول النص وطريقة التعامل معه والنظر فيه، وما هي المُقدّمات المعرفية والمنهجية لفهم النص الشرعي وقراءته قراءةً تأويليةً جديدةً. والغالبُ على هذه القراءات التأويلية أنها تُشككُ في المقولات الفكرية الموروثة وتستخدمُ مقولات فكريةً ومنهجيةً غريبةً جديدةً، أو تستخدمُ مقولات قديمةً بعدَ إفراغها من محتواها

(١) لا شك أن المعنى الحديث الذي أصبح يدل عليه التأويل، له دخلٌ كبيرٌ في هذا العرض، لما له من ارتباطٍ بطُرق الفهم والإدراك والتفسير، الحديثة للنص القرآني، وهي طُرقٌ ومناهجٌ حديثة انطلقت في قراءة النصوص الأدبية واللغوية والإبداعية على وجه العموم، من خلفيات نظرية ومناهج لسانية ومفاهيم فلسفية أثّرت في هيئة التعامل مع النصوص وفي توجيهها.

(٢) انظر: خالد بن عبدالعزيز السيف: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر - دراسة نقدية إسلامية، نشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط ١، ١٤٣١ هـ/٢٠١٠ م.

وَمِنْهَا دَلَالَةٌ جَدِيدَةٌ كَمَقَاصِدِ الْمُتَكَلِّمِ وَتَأْوِيلِ الْمُخَاطَبِ؛ فَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ التَّأْوِيلِيَّةُ الْحَدِيثَةُ تَسْتَعْمَلُ مَفْهُومَ الْمَقَاصِدِ عَلَى غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ فِي عِلْمِ أَصُولِ الْفِقْهِ، وَتَرْبِطُهُ بِنَسْبِيَةِ الْأَحْكَامِ وَبِتَارِيخِيَةِ النَّصِّ، وَتَتَوَسَّلُ بِمَفَاهِيمَ تَتَذَرَعُ بِهَا لِإِعَادَةِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّصْحِيحِ، وَكَأَنَّ الطَّغْنَ وَالْهَدْمَ عِنْدَ أَصْحَابِهَا ضَرُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَوَاجِبٌ حَضَارِيٌّ.

النص القرآني والسمت النظمي :

مِنْ مَزَايَا الْكَلَامِ الْجَيِّدِ الْبَلِيغِ، تَمَيَّزُ صَاحِبُهُ بِبَعْضِ الْعِبَارَاتِ الْأَدْبِيَّةِ أَوْ النَّمَاذِجِ الْخَاصَةِ الَّتِي تَقْتَرُنُ بِاسْمِهِ، فَإِنْ اسْتَعْمَلَهَا أَحَدٌ بَعْدَهُ فَعَلَى سَبِيلِ النُّقْلِ وَالتَّأَثُّرِ أَوْ الِاسْتِفَادَةِ، وَتَمَيَّزُ هَذِهِ النَّمَاذِجُ الْمُتَفَرَّدَةُ بِدَقَّةِ النَّظَرِ وَغُمُوضِ الْمَسَلِّكِ، فِي تَوْخِيِ الصُّورِ وَالْمَعَانِي، وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ شَيْخُ الْبَلَاغَةِ عَبْدُ الْقَاهِرِ بِقَوْلِهِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِحْتِدَاءَ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ بِالشُّعْرِ وَتَقْدِيرِهِ وَتَمْيِيزِهِ أَنْ يَبْتَدِيَءَ الشَّاعِرُ فِي مَعْنَى لَهُ وَغَرَضٍ أَسْلُوبًا، وَالْأَسْلُوبُ الضَّرْبُ مِنَ النِّظْمِ وَالطَّرِيقَةُ فِيهِ، فَيَعْمَدُ شَاعِرٌ آخَرَ إِلَى ذَلِكَ الْأَسْلُوبِ، فَيَجِيءُ بِهِ فِي شِعْرِهِ»، وَمَا مِنْ شَاعِرٍ مُجِيدٍ إِلَّا وَلَهُ نَمُودَجٌ يُعْرَفُ بِهِ وَيُحْتَدَى، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ فِي لُغَةِ الْعِلْمِ بِالْأَسْلُوبِ أَوْ النَّمَطِ أَوْ الْأَنْمُودَجِ الْخَاصِ Paradigm أَوْ النَّسْقِ أَوْ الطَّرِيقَةِ أَوْ الضَّرْبِ أَوْ الْمَذْهَبِ أَوْ النَّحْوِ أَوْ الْمُنْحَى...

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُحْصِيَ مِائَاتِ النَّمَاذِجِ لِأَجَاوِدِ الشُّعْرَاءِ لِأَنَّهَا مَعَانٍ مَبْتَكَّرَةٌ وَأَوْضَاعٌ غَيْرٌ مَسْبُوقَةٌ، وَلَوْ تَأَمَّلْنَا لَوَجَدْنَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ سَبَاقًا إِلَى الْأَوْضَاعِ الْجَدِيدَةِ وَالنَّمَاذِجِ الْأَسْلُوبِيَّةِ الْمُتَفَرَّدَةِ الَّتِي يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ "النِّظْمُ الْقُرْآنِي"، وَلَوَجَدْنَا الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ مُحْتَدِيًا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ

خلال ما يُعرَفُ في البلاغة النبوية بجوامع الكلم، كقوله ﷺ: «الآن حمي الوطيس»^(١)... ولوجدنا لكل عصر مئات النماذج المُنتقاة. ونضربُ على ذلك مثلاً من القرآن الكريم، من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيِّدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، (الفاعل: سقط في يده، يُضرب لمن ندم)، قال أبو القاسم الزجاجي: «سقط في أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن، ولا عرفته العرب، ولم يوجد ذلك في أشعارهم، والذي يدل على ذلك أن شعراء الإسلام لما سمعوا هذا النظم واستعملوه في كلامهم خفي عليهم وجه الاستعمال لأن عادتهم لم تجر به»^(٢).

ومما يجذب الانتباه في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] والمعنى: لا ينزل المكر ولا يُجاوز ولا يُحيط إلا بأهله. ومثل هذه الآية في القرآن الكريم كثير مما يجري مجرى الأمثال، وهذا هو النوع البديعي المُسمى بإرسال المثل، من ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، ﴿لَنْ نَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾، ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقَّ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ﴾، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين، عن عبد الله بن عباس.

(٢) أبو الفضل الميداني النيسابوري: مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار المعرفة، بيروت.

رَهِينَةً ﴿١﴾ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ ﴾ ﴿ ءَأَكْفُرُ بِاللَّهِ ﴾ ﴿ وَكَلَّ اللَّهُ بِكُمُ الْكَيْدَ ﴾ ﴿ وَلَا يَنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ ﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ﴿ فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

فما أجمل هذه الآيات وما أبدعها وما أخصها بالقرآن الكريم ذي النظم البديع والأسلوب الفريد المتميز.

وهكذا فإذا قلنا إن الشعر متفردٌ بنظمه وأساليبه وعباراته ونماذجه الفذة؛ فإن القرآن الكريم من باب أولى وأخرى أن نتحدث فيه عن التباس المعاني فيما بينها في العبارة الواحدة، وتماشكها واتساقها وكأنها صُبت في ذلك القالب اللغوي إصباةً واحدةً وسُبكت سبكاً واحداً، ولم يعد للفظ الواحد وجودٌ إلا بسابقه وتاليه، ولو أبدلت لفظاً مكان لفظ لارتبك التعبير واضطرب ولخرج من باب البلاغة إلى باب الكلام المألوف، فلما أخرجت عبارات القرآن العظيم ذلك الإخراج الكريم تميز بناؤه اللغوي والبلاغي وتفردت عباراته البديعة، وأصبحت أمثالا تُضرب ونماذج تُحتذى، مما لم يُسمع مثلها في بلاد القول.

ففي القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ، من العبارات النوابع، والكلم الجوامع، والنعم السوابع، ما أنعم به الله على هذه الأمة، فاقتفت آثار العبارات البليغة، ونسجت على منوالها ما به يسمو كلامها، وهذا مبحث طويل ويات

واسع لمن أراد أن يلجّه. وستحدث في هذا العرض عن النص القرآني بوصفه كلام الله سبحانه وتعالى من أوله إلى آخره، ليس فيه حرفٌ مُقحمٌ ليس منه، ولا حرفٌ مُسقطٌ هو منه، ولا حرفٌ مُغيرٌ عن مكانه، ولا حرفٌ زائدٌ يُستغنى عنه، ولا حرفٌ وُضع في غير موضعه وغيره أولى منه في ذلك المكان.

وإذا كان كل ذلك منفيًا عن القرآن الكريم، بدليل من نصوص القرآن الكريم وتراكيبها ودلالاتها، انتهينا بالعقل والنقل إلى أن القرآن الكريم من أوله إلى آخره نص واحدٌ كاملٌ متكاملٌ، مُتماسكٌ مُؤتلفٌ، ليس فيه فراغٌ ولا زيادةٌ ولا نقصانٌ ولا تغييرٌ ولا تبديلٌ ولا تحريفٌ. فمن أين جاء هذا الائتلاف وهذا الانسجام وهذا التماسك، أو هذه النصية البليغة؟ ومن المعلوم أن علماء علوم الآلة (النحو والبلاغة والأدب) وعلماء علوم القرآن الكريم (التفسير وعلم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والوقف والابتداء والقراءات...) وعلماء الأصول والفقه، حاولوا، على تفاوت بينهم، أن يثبتوا لنا صفات الكمال والإعجاز والتماسك والانتظام في النص القرآني، وأن يثبتوا لنا أن هذه الوحدة إنما هي وحدة البنيان. فما هي مظاهر هذا الجمال في هذا البنيان المشيد؟

الحقيقة أن نصوص القرآن الكريم تُعالج من جهة كون القرآن كله وحدةً بنائيةً بكل سورة وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته، كالجُملة الواحدة أو البناء المُحكّم الذي يمتنع اختراقه لمتانته وقوته^(١)، ولا يقبل بناؤه

(١) طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، سلسلة دراسات قرآنية (٣)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

وإحكام آياته التعدد فيه أو التجزئة في آياته، ولولا هذه الوحدة البنائية لما استوعب القرآن "خبر ما بعدنا" حيث استوعب مستقبل البشرية. وبمنهج التعامل بهذه الوحدة البنائية لن نستطيع أن نهتم بجانب من جوانب القرآن الكريم كالأحكام الفقهية أو الفوائد البلاغية، ونهمل الجوانب الأخرى؛ لأن معاني الآيات لن تُسفر عن وجهها حتى تُقرأ في سياقها وموقعها وبيئتها، وتُدرَك العلاقة بين الآية والقرآن الكريم كله؛ لأن القرآن بناءً مُحكمٌ واحدٌ، ونظْمٌ مُتفرّدٌ واحدٌ، تسري فيه كله روحٌ واحدةٌ تحوله إلى كائن حي يُخاطبك كفاحاً ويشتبك معك في جدل شامل يُجيبُ به عن أسئلتك^(١).

لقد شغل جيلُ التلقي بالتعلم للعمل والتطبيق، وشغل جيلُ الرواية بتتبع الروايات وتمحيصها، وشغل جيلُ الفقه بإنتاج الفقه للاستجابة لمستجدات الحياة، وانتشر مع مناهج الفقهاء النظر الجزئي في الآيات والمُسارعة إلى الدليل الجزئي.

ولكن المفسرين بالرغم من اقتناعهم بأن القرآن يُفسرُ بعضه بعضاً لم يُؤد انشغالهم بالتفسير إلى الكشف عن الوحدة البنائية للقرآن الكريم، وقد ذم الله عز وجل المُقتسمين الذين جعلوا القرآنَ عِضِينَ أي مُفرقاً، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وقد كان الذم كافياً للدفع إلى اكتشاف منهج للقراءة الواحدة غير المُجزئة لاكتشاف الوحدة البنائية.

* * *

(١) انظر تفصيل الفكرة في كتاب الوحدة البنائية، ص: ١١-٢٠.

وعليه، جاء هذا العرض ليضع اليد على أهمية المقاربة النصية اللسانية في معالجة دلالات النصوص وبنياتها، حتى يبلغ بهذا المنهج اللساني النصي درجة من الدقة في فهم النصوص، ويتجنب المزالق في الفهم ومواطن الخلل فيه، وهي مزالق ناتجة عن إخراج النص عن مواضعه ومقاصده، والنص القرآني الكريم أولى النصوص بالعناية والاهتمام، وهذا باب كبير من أبواب العلم ينبغي أن تُصرف إليه العناية، ويبلغ في ذلك العلماء الغاية، وفي ذلك قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم كان الفهم لمعانيه أوفى الفهم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»^(١). وقد بدأ يظهر في ساحة المناهج مقاربات نصية حديثة تقوم على التماس مواطن الانسجام والتماسك في بناء النص القرآني والبحث عن كل عناصر التساؤد في البنية اللفظية والمضمون الدلالي والمقاصد الشرعية، التي تقود إلى طريق نهجة في النظر السديد والتأويل المفيد، بعد أن نال التفسير ما ناله من شطط في الفهم وابتعاد عن روح النص ومقاصده العليا.

ففي المقاربة النصية ما يخدم الغرض ويُفيد في الاستدلال على أسرار النص القرآني وأعماقه الجمالية والنصية، التي تركز على الاستمداد من بنيته النصية نفسها، التي تتوافق وسياقه الخارجي ومقاصده العليا ولا تُعارضها، وفي هذه المقاربة النصية أيضاً رد حجاجي برهاني على الأقاويل التاريخية والأباطيل التأويلية والنظريات الفلسفية المستوردة

(١) زاؤ المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

التي تعتسف الطريق إذ تتخذ من النص القرآني، قسراً، مطيةً لشحد أسلحتها وتحمّله وجوهاً من الفهم وأفكاراً بعيدة لا يؤيدها السياق الخارجي الذي أحاط بنزول النص ولا يؤيدها الخطاب العلمي الذي رافقه وبين منهج فهمه وتنزيله والاستنباط منه، من سيرة نبوية وسنة وسير صحابة واجتهاد علماء وتفسير مفسرين واستنباط فقهاء، مع التأكيد أن الاعتماد على تلك العتبات أو النصوص الموازية والمرافقة، لن يسقط عن الناظر في النص القرآني، العارف بشروط الفهم والتفسير وقواعد الاستنباط، الإقرار بأن بسط الدين على واقع الناس لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار قضايا العصر ومشكلات الناس الذين هم محل الحكم الشرعي، وهي أمور وقضايا تستلزم البحث في علوم الآلة الجديدة، المسماة اليوم بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، فإن هذه العلوم المستحدثة تعد إلى جانب الأدوات القديمة المألوفة، أدوات ضرورية لفهم الواقع وإدراك أبعاد الإنسان. وتقدم من المعارف والنتائج ما أصبح معه ضرورةً شرعية .

إن تنزيل أحكام الشريعة المستنبطة من النص القرآني على واقع الناس إنما يُراعى فيه هذا الواقع بأعرافه وتقاليده ونظمه وأسلوبه في الحياة وثقافته وفكره، وهي خصوصياتٌ جديرةٌ بأن تُراعى في فهم النص والاستنباط منه لتنزيل الأحكام، إذا كانت تستحق ذلك ولا تُعارض صريح الدين والقطعي من الأحكام، فيكون هذا الاجتهاد في فهم النص واستيعاب حقيقته مبنياً على أدب خاص وقواعد تتناسب وطبيعته، وتستخدم فيه وسائل آليةً للتحليل والتصنيف والرصد، قائمة على أسس علمية غير متروكة للتلقائية والعفوية.

* * *

مظاهر "بناء النص" في القرآن الكريم

يحلّو لبعض الباحثين المعاصرين أن ينفوا عن القرآن الكريم كل مظاهر النصية الموحدة للقرآن الكريم^(١)، وأنه ليس نصاً منسجماً بالمعنى الحديث، الذي يستلزم درجة كبيرة من الترابط في مستوى التأليف اللغوي، فليس في القرآن - بزعمهم - نص مترابط ولا منسجماً بل لا يوجد ذلك حتى في السورة الواحدة على الرغم من المحاولات الجادة لبعض الدراسات حول التفسير الموضوعي للقرآن، والدراسات الجادة في المناسبات الموضوعية بين السور، بل ذهب هؤلاء الباحثون أيضاً إلى أن القرآن الكريم مجموعة من المدونات كمدونة العقيدة ومدونة الشريعة ومدونة الوعظ ومدونة الغيب ومدونة القصص، ولكل مدونة أسلوبها وعباراتها، وباستثناء مدونة الشريعة، يمكن أن نتصور درجات من الغموض الدلالي تُتيح للتأويل مكاناً في فهم النص والاجتهاد فيه.

وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة على خلو النص القرآني من عناصر التماسك والانسجام النصيين، وهي عناصر اجتهد علماء البلاغة وعلوم القرآن لإثباتها والبرهنة عليها بالشواهد الكثيرة من الآيات والسور، وبسطها وبيانها في كتبهم.

النص بناءً مُحكمٌ مُتماسكٌ، يُفيدُ معنىً مُحدداً؛ والكلامُ في الشأن

(١) انظر: المصطفى تاج الدين: التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، ع: ٣٢-٣٣، رمضان ١٤٣١هـ/ غشت ٢٠١٠م، ص: ١٦٨-١٨٣.

الواحد إذا انفردت عقده و«سَاءَ نَظْمُهُ انْحَلَّتْ وَحِدَةٌ مَعْنَاهُ، فَتَفَرَّقَ مِنْ أَجْزَائِهَا مَا كَانَ مُجْتَمِعاً، وَانْفَصَلَ مَا كَانَ مُتَّصِلاً... فَلَا بُدَّ إِذَا لِإِبْرَازِ تِلْكَ الْوَحْدَةِ "الطَّبِيعِيَّةِ" الْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ إِحْكَامِ هَذِهِ الْوَحْدَةِ الْفَنِيَّةِ "الْبَيَانِيَّةِ"، وَذَلِكَ بِتَمَامِ التَّقْرِيْبِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْبَيَانِ وَالتَّأْلِيفِ بَيْنَ عَنَاصِرِهِ حَتَّى تَتَمَاسَكَ وَتَتَعَاقَقَ أَشَدَّ التَّمَاسُكِ وَالتَّعَاقُقِ»^(١)

١ - أنسجام النص القرآني وتماسك بنائه:

عندما نتحدث عن الأنسجام والتماسك في النص، فإنما نتحدث عن معيارين رئيسيين من معايير بناء النص أو ما يُدعى بالنصية (Textuality)^(٢)؛

- (١) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، دار الثقافة-الدوحة-قطر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص: ١٤٢-١٤٣
- (٢) تراجع المؤلفات التي عُنيت بلسانيات النص وتحليل الخطاب، ومنها:
 - لسانيات النص، مدخل إلى أنسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. ٢٠٠٦ م
 - نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، حسن خمري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧م،
 - في نظرية الأدب وعلم النص، بحوث وقراءات، إبراهيم خليل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م،
 - مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨م،
 - بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، بيروت، ١٩٩٦م
 - علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونغمان، بيروت، ١٩٩٧م.

==

فالتماسك أو الاتساق (Coherence) مفهومٌ يُعنى بخصائص الربط النحوي بين الجمل والعبارات لتأليف بنية نصية متماسكة مترابطة، ويعتمد الربط النحوي على الإحالة والتكرار والربط بحروف العطف والفصل والوصل وغير ذلك. أما الانسجام (Cohesion) فيدخل فيه الترابط الموضوعي^(١) للنص، الذي يجعل من النص وحدة دلالية. ومن مظاهره أيضاً اشتمال النص على سيرورة واستمرارية وتطور واتجاه نحو غاية محددة تضمن له التدرج والانتقال وتنفي عنه الانتقال غير الموسوع، ووجود مثل هذه العلاقات المعنوية داخل النص يُيسر فهمه فهماً منطقياً^(٢).



٢- جمال الانسجام في النص القرآني في كونه جملةً موحدةً تقوم على قاعدة التناسق:

بين الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه «التصوير الفني في القرآن»، أن جمال القرآن الكريم ليس في كونه أجزاءً وتفاريق، وإن كان للأجزاء جمالاً وسحرًا، ولكن جماله في كونه جملةً موحدةً تقوم على قاعدة

==

- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط. ٢٠٠٤، م. ٢٠١٠.

- (١) مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، محمد الأخضر الصبيحي، ص: ٨٢.
(٢) تحليل الخطاب، براون ويول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، الرياض، منشورات جامعة الملك سعود، ١٩٩٧م، ص: ٢٣٤.

خاصة فيها من التناسق العجيب ما لا يدركه إلا من عَرَفَ قِيَمَتَهُ وعانى قراءته ومُدارستَه، ووقَّفَ على صَمِيمِ النَسَقِ القُرْآنِي الذي هو مَنبَعُ التأثير والسحر^(١). ولهذا فإن القرآن الكريم حكى لنا من خلال قول الكفار: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٣٦] [فصلت: ٢٦]، ما أصيبوا به من دُعر كان يضطربُ في نفوسهم، من تأثير القرآن في نفوسهم ونفوس أتباعهم، فهُرَعُوا لتحذير قومهم عندما أحسوا في أعماقهم روعةً هزتْهم هزاً عنيفاً، فقالوا مستكبرين متظاهرين بالغلبة والظهور على سحر القرآن، وهم يُخفون العجز: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [٣١] [الأنفال: ٣١] ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥].



٣- انسجام الأداة التأويلية: من مظاهر الانسجام تفسير القرآن بالقرآن أي تفسير النص بالنص من داخل النسق القرآني نفسه:

من أهم مزايا بيان القرآن بالقرآن أنه يضع اليد على مظاهر التماسك والانسجام في النص الكريم، ويكون للمفسر ملكة يدرك بها أساليب القرآن ودقائق نظمته، وفي ذلك قال ابن كثير في خطبة تفسيره: «إن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر»^(٢)، وقال العلماء: «من أراد تفسير كتاب الله العزيز

(١) يُنظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمَرَ بن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط. ٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

طلبه أولاً من القرآن؛ فما أجمل في مكان فقد فسر في موضع آخر منه، فمن ذلك أنه قد يقع تبيين الآية منفصلاً عنها أي يلتصق في آية أخرى نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] بعد قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ فقد بينت أن المراد به الطلاق الذي تملك الرجعة بعده، ولولا الآية المبينة لكان الأمر منحصراً في الطلقتين. وقد أخرج أحمد وأبو داود عن أبي رزين الأسدي قال: قال رجل: يا رسول الله أرأيت قول الله "الطلاق مرتان"، فأين الثالثة؟ قال: "أو تسريحاً بإحسان". ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فسر ما بعده^(١): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

ويلحق ببيان القرآن بالقرآن، بيانه بالسنة؛ فكل ما حكّم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] وقال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٢)، يعني السنة. وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، بقوله:

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مصطفى

ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق/بيروت، ط. ٢٠١٤هـ-٢٠٠٦م، ج: ٢، ص: ٦٩٤-

٦٩٥.

(٢) عن المقدم بن مغديكرب: سنن أبي داود، الحديث: ٤٦٠٦، باب في لزوم السنة.

«مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: إِنْ لَلَّهِ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنزَلُ الْغَيْثُ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنْ لَلَّهِ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(١).

فَقَدْ بَيَّنَّتِ السَّنَةُ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَمَقَادِيرَ نَصَبِ الزُّكُوتِ فِي أَنْوَاعِهَا.

أَمَّا إِنْ لَمْ يَجِدِ الْمُفَسِّرُ فِي السَّنَةِ رَجَعَ إِلَى أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَدْرَى بِذَلِكَ لَمَّا شَاهَدُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَحْوَالِ عِنْدَ نُزُولِهِ، وَلَمَّا اخْتَصَّوْا بِهِ مِنَ الْفَهْمِ التَّامِ وَالْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ أَنَّ تَفْسِيرَ الصَّحَابِيِّ الَّذِي شَهِدَ الْوَحْيَ وَالتَّنَزَّلَ لَهُ حُكْمُ الْمَرْفُوعِ^(٢).

وَهَكَذَا فَإِنْ شَرَحَ كَلِمَةً قُرْآنِيَةً بِأُخْرَى أَوْ جُمْلَةً بِأُخْرَى أَوْ آيَةً بِآيَةٍ، مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِيُعَدَّ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ انْسِجَامِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، أَمَا شَرْحُهَا بِأُخْرَى مِنْ خَارِجِ الْقُرْآنِ فَلَنْ يُؤَدِّيَ الْمَعْنَى الْمَرْجُوعِ، وَيُظَلُّ شَرْحًا تَقْرِيبيًّا لِأَنَّ الْعِبَارَةَ اللَّغَوِيَّةَ الشَّارِحَةَ لَا تَرْتَنُّ قِيَمَةَ الْعِبَارَةِ الْمُنزَلَةِ وَحِيًّا. وَلَكِنَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَظَلُّ خَاضِعًا لِمَبْدَأِ التَّرَابُطِ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِ النَّصِّ، سِوَاءِ أَكَانَ تَرَابُطًا رَصْفِيًّا (نَظْمِيًّا) أَمْ كَانَ تَرَابُطًا مَفْهُومِيًّا لِلْأَفْكَارِ، وَيَدْخُلُ هَذَا الْإِرْتِبَاطُ أَوْ هَذِهِ الْعَلَاقَاتُ فِي بَابِ "التَّنَاصُ"^(٣)، بِمَعْنَى أَنَّ بَيْنَ النَّصِّ وَشَرْحِهِ أَوْ بَيْنَهُ

(١) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، كِتَابُ التَّفْسِيرِ، بَابُ (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) وَالْحَدِيثُ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ.

(٢) الْإِتْقَانُ: ج: ٢، ص: ١١٩٧.

(٣) هَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّسَانُدِ التَّأْوِيلِيِّ بَيْنَ نصوصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُعْبَرُ عَنْهُ أَهْلُ لِسَانِيَاتِ النَّصِّ بِالتَّنَاصُ [Intertextuality]، وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَعْنَى نَصٍّ مَا يَوْجَدُ فِي نَصٍّ آخَرَ مِنْ

وبينَ تفسيره وتأويله، أو بينه وبين ترجمته أو ترجمة معانيه إلى لغة أخرى أو محاكاته، أو أي شيء من هذا القبيل، رابطة تُسمى "التناسق"، فمن التناسق تفسير القرآن بالقرآن، وتخصيص السنة لعموم القرآن^(١).



٤ - من مظاهر انسجام النص القرآني وتماثك بنائه: تناسق أجزائه:

يدخل في هذا الباب كل المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية التي تُعنى بالعلاقات الكبرى بين أجزاء النص، ومن شأن هذه الدراسة النصية أن تُجنب النص القرآني القراءة التجزيئية، وتُقدم قراءة جامعةً تنتظم فيه الكلمات والآيات والسور في سلك واحد، وتنتظم فيه المعاني والدلالات والمقاصد في أصل واحد، فيبدو النص القرآني كله قطعةً واحدةً يكون فيها الكلام متحدرًا تحدر الماء المُسجَم، سهولةً سبك وعذوبةً ألفاظ، وجمع معانٍ، وهذا الجامع بين الأجزاء هو الذي سماه الإمام البقاعي بالأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن^(٢)، وهو

==

داخله أو من خارجه، يُنظر: تمام حسان: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، ص:

.٤٤٣

(١) للتوسع في مبدأ التناسق، يُنظر: تمام حسان، البيان في زواجر القرآن، منشورات عالم الكتب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج: ١، ص: ٤٠٣ و

.٤٥٧

(٢) وهذا ما يُعرف بعلم التناسق أو علم المناسبات، وهو علم يُعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب،

==

أَنَّكَ تَنْظُرُ الْغَرَضَ الَّذِي سَيَقْتُ لَهُ السُّورَةَ، وَتَنْظُرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْغَرَضُ مِنَ الْمَقَدِّمَاتِ وَتَنْظُرُ إِلَى مَرَاتِبِ تِلْكَ الْمَقَدِّمَاتِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنَ الْمَطْلُوبِ، وَتَنْظُرُ عِنْدَ انْجِرَارِ الْكَلَامِ فِي الْمَقَدِّمَاتِ إِلَى مَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ اسْتِشْرَافِ نَفْسِ السَّامِعِ إِلَى الْأَحْكَامِ وَاللُّوْازِمِ التَّابِعَةِ لَهُ، فَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْكُلِّيُّ الْمَهِيْمُنُّ عَلَى حُكْمِ الرِّبْطِ بَيْنَ جَمِيعِ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ، وَإِذَا فَعَلْتَهُ تَبَيَّنَ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَجْهَ النِّظْمِ مُفْصَلًا بَيْنَ كُلِّ آيَةٍ وَآيَةٍ فِي كُلِّ سُورَةٍ سُورَةٍ.

وقد أشار الإمام فخر الدين الرازي إلى أن أكثر لطائف القرآن الكريم مودعة في الترتيبات والروابط^(١).

ويدخل في باب المناسبة التذييل وهو باب من أبواب البديع، وهو ضرب من التعقيب على ما سبق في الآية؛ وهو أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقاً لدلالة منطوق الأول أو مفهومه؛ ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ: ١٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]؛ أي لا يجازى ذلك الجزاء الذي يستحقه

==

وثمَّ رُتْبَةُ الْإِطْلَاقِ عَلَى الرِّتْبَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الْجُزْءُ بِسَبَبِ مَا لَهُ بِمَا وَرَاءَهُ وَمَا أَمَامَهُ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ وَالتَّعْلُقِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ اسْمَ كُلِّ سُورَةٍ مُتْرَجِّمٌ عَنِ مَقْصُودِهَا، وَمَقْصُودُ كُلِّ سُورَةٍ هَادٍ إِلَى تَنَاسُبِهَا. (الإمام إبراهيم بن أبي بكر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، انظر مقدمة الكتاب).

(١) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المقدمة.

الكَفُورُ إِلَّا الكَفُورُ^(١)، ومثله: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] وبعده: ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

فالملاحظ أن بين مضمون الآية ومضمون التذييل انسجاماً وتألفاً وتناشياً؛ فلا تجد آية عقاب تذييل بآية رضوان، فإن البيان القرآني بقيمه وأدواته يتجه نحو رعاية مطالب المعنى وتناشيب الصدور والخواتيم؛ ومن الشواهد على عبارات التذييل، قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، كل آية من هذه الآيات وردت في سياق التذييل لما قبلها، بعد تمام المعنى.

ويدخل في المناسبة أيضاً باب من أبواب البديع، وهو التثمين؛ وهو إزداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقرّبها من الفهم، وتتم المعنى إما مبالغة أو احترازا أو احتياطاً، نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهَا جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، تم المعنى بقوله "بالإثم"؛ وذلك أن العزة تكون محموداً ومذمومة؛ فمن مجيئها محموداً: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] فلو أطلقت كلمة العزة لتوهم فيها بعض من لا عناية له العزة المحمود، لذلك قيل: "بالإثم" تمييزاً للمراد لرفع اللبس بها^(٢).

(١) البرهان، ج: ٣، ص: ٦٨-٦٩. والإيقان: ج: ٢، ص: ٨٦٩.

(٢) أحمد بن يوسف السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م، ج: ٢، ص: ٣٥٤-٣٥٥.

ففي اللفظ المُتَمِّم إلحاقُ يَكْمُلُ به المَعْنَى؛ إذ يأتي المعنى غَيْرَ مَشْرُوح وربما كان السامع لا يتأملُه ليعودَ المتكلمُ إليه شارحاً، نحو قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾ [الإنسان: ٨]، فالتميمُ في قوله «على حبه» جعلَ الضميرُ الهاءَ كنايةً عن الطعامِ مع اشتغائه. وكذلك قوله: ﴿ وَءَاتَى الْوَالِدَ عَلَى حُبِّهِ ۝١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ ۝١٢٤ ﴾ [النساء: ١٢٤] فقوله ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ تتميمٌ في غاية الحسن^(١).

ويدخلُ في المناسبة أيضاً تجانسُ الألفاظ والمُزَاوَجَةُ بينها؛ كقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۝١٩٤ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ﴾ [الله يستهزئ بهم] ﴿ [البقرة: ١٤-١٥]، ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ۝١٤٢ ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ ﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرًا أَلَلَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ ۝١٥٤ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۝٤٠ ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ومن قبيل المناسبة أيضاً: ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ قُلُوبِهِمْ ۝١٢٧ ﴾ [التوبة: ١٢٧]، ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۝٣٧ ﴾ [النور: ٣٧]^(٢).

ولقد أشارَ الجاحظُ إلى نظم القرآن واستمراره واطراد أساليبه على

(١) البُزْهَان، ج: ٣، ص: ٧٠

(٢) انظرُ تفصيلَ الكلام عن المناسبة في كتاب: مجد الدين الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، ج: ١، ص: ٧٠.

الصفة العالية في البلاغة والفصاحة، فقال: «وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيّرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال...»^(١).

وفرق في موضع آخر بين نظم القرآن وتأليفه وبين نظم سائر الكلام وتأليفه؛ فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث والنثر إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمّس من الأسجاع والمزاج من المنشور والخطب من الرسائل... فإذا عرف صنوف التأليف عرف مبادئ نظم القرآن لسائر الكلام^(٢).

والدليل على هذا الأمر الكلي على سبيل المثال لا الحصر سورة

(١) أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مط. المدني، القاهرة، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. ٧، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، ج: ١ / ص: ٢٠.

(٢) أبو عثمان الجاحظ: كتاب الغمانيّة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ص: ١٦.

الفاتحة التي تُعد أم الكتاب؛ فقد «اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن...»^(١)، ثم أخبر تعالى بهذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿الرَّكِنُ أَحْكَمُ أَيْنَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمِ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فالإحكام إحكام لبناء متين حتى لا يخرقه خارق، «القرآن محفوظٌ ومُغلقٌ بإحكام أمام كل محاولات الاختراق»^(٢)، فهو بناءٌ واحدٌ متماسكٌ لا يقبل التجزؤ أو التعدد، فلا يقبل كتابُ الله أن نهتم بجانب منه ونهمل الجوانب الأخرى، فلا تفتح الآيات والسور معناها لقارئها حتى يعرضها على سياقها وموقعها من النص القرآني كله.

والنص القرآني نصٌ متماسكٌ تترابط ألفاظه ترابطاً لغوياً نحوياً متيناً، ويُنشئ الترابط نظاماً ومعماراً مُحكماً لا يقبل التجزيء، حتى قالوا إن القرآن الكريم كله كالسورة الواحدة، يذكر الشيء في سورة ويأتي بالجواب في سورة أخرى^(٣)، نحو: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وجوابه: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]، فالكلام القرآني كله في جريان كالماء المنسجم؛ وكلما قوي الانسجام

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، خطبة الكتاب.

(٢) طه جابر العلواني: الوحدة البنائية للقرآن المجيد، سلسلة دراسات قرآنية (٣)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص: ١٣.

(٣) ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، السلسلة التراثية، ط ١، الكويت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ج: ٣، ص: ٣٣٦-٣٤٠.

حسبت فقراته موزونة بلا قصد^(١)، نحو قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله: ﴿ نَبِيٍّ عَبْدِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَурُ الرَّحِيمُ ﴾^(٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٥٠) [الحجر: ٤٩-٥٠].

تختلف ألفاظ القرآن الكريم ولا تراها إلا متفقة، وتفرق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تُداخلك بالطرب، وتُشرب قلبك الروعة... فأنت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاءها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام، كأنها تُفضي إليك جملة واحدة حتى تُؤخذ بها^(٢).



٥- ومن مظاهر الانسجام أيضاً الجمع بين غرضين مختلفين، كالجمع بين التعزية والفخر في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾^(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٢٧) [الرحمن: ٢٦-٢٧]، فقد عزي جميع المخلوقات

(١) جلال الدين السيوطي: مُعْتَرَكُ الْأَقْرَانِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بيروت، ج: ١، ص: ٢٩٥...، والإيتقان، ج: ١، ص: ٩٠٨-٩١٠.

(٢) انظر التفصيل في: مصطفى صادق الرافعي: إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَبَلَاغَةُ النَّبَوِيَّةِ، ص: ٢٤٠-٢٤١.

وتمدح بالبقاء بعد فناء الموجودات، مع وصف ذاته بالجلال والإكرام.



٦- ومن مظاهر الانسجام أيضاً الملاءمة والائتلاف بين اللفظ واللفظ، وبين اللفظ والمعنى، لتعادل في الوضع وتناسب في النظم:

- فمن ائتلاف الألفاظ ملاءمة بعضها بعضاً في العرابة، نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّه تَفْتُوا تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، فقد أقسم بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، وبأبعد صيغ الأفعال الناسخة وهي "تفتأ"؛ فإن "تفتأ" أغرب من "تزال" وأقل استعمالاً منها، ثم جاء بأغرب ألفاظ الهلاك وهو "الحرض"، فاقترضى حُسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بالتي من جنسها في العرابة وتُقرن بها توحياً لحسن الجوار ورعاية لائتلاف المعاني بالألفاظ.

- ومن ملاءمة الألفاظ لمعانيها التناصب بين اللفظ والمعنى في الفخامة أو الجزالة أو العرابة أو التداول أو التوسط والاعتدال، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ﴾ [هود: ١١٣]؛ فالركون إلى الظالم دون مشاركته في الظلم، يُعاقب عليه بالمس بالنار فقط، دون الإحراق، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فقد جاء بلفظ الاكتساب الذي يُشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها^(١)، ومن ذلك أن الفعل "كُتِبُوا" في قوله تعالى: ﴿فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ

(١) السيوطي: الإتيان: ج: ٢/ص: ٩١١، مُعْتَرَكُ الأقران: ج: ١/ص: ٢٩٥.

وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾ [الشعراء: ٩٤] أبلغ من الفعل "كُبوا" لأنها في الأول معنى الكَب العنيف، و"يَصْطَرخُونَ" في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرخُونَ فِيهَا رَبِّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] أبلغ من "يَصْرُخُونَ" لأنهم يَصْرُخُونَ صُرَاخًا مُنْكَرًا خَارِجًا عَنِ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ، وَاضْطَبْرُ أْبْلَغُ مِنْ "اضْبِرْ".

٧- ومن مظاهر الانسجام أيضاً حُسْنُ النَسْقِ:

وهو أن يأتي المتكلم بكلمات مُتتاليات مَعطوفات مُتلاحمات تلاحماً سليماً مُستحسنًا، بحيث إذا أُفردت كل جملة منه قامت بنفسها واستقل معناها بلفظها؛ ومن أجمل ما ذكره أهل البلاغة والتفسير وعلوم القرآن في ذلك؛ الآية الرابعة والأربعون من سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ ، وما تحدث عنه ابن مَعصوم المَدني في باب "حُسن النَسق" (١) حيثُ بينَ تَنسيقَ الصفات وهو ذكُرُ كَلِماتِ مَعطوفات مُتلاحمات تلاحماً سليماً مُستحسنًا، بحيث إذا أُفردت كل جُملة منه قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها، وأكبر شاهد على ذلك فاتحة الكتاب، وقد بين الإمام البقاعي وجه الانسجام والتماثل في نص أم الكتاب، بقوله: «وكانت سورة الفاتحة أما للقرآن، لأن القرآن جميعه مُفصل من مجملها، فالآيات الثلاث الأولى شاملة لكل معنى تضمنته الأسماء الحسنى والصفات العلى، فكل ما في القرآن من ذلك فهو مُفصل من جوامعها، والآيات الثلاث الأخرى من قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾ شاملة لكل ما يُحيط بأمر الخلق في الوصول

(١) نقلاً عن السيوطي في الإتيان.

إلى الله والتحيز إلى رحمة الله والانقطاع دون ذلك، فكل ما في القرآن منه فمن تفصيل جوامع هذه، وكل ما يكون وُصلةً بين ما ظاهره من هذه من الخلق ومبدؤه وقيامه من الحق فمفصلٌ من آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ونعودُ إلى آية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٤] [هود: ٤٤]، لنلاحظ أن جُمَل الآية معطوفٌ بعضها على بعض بواو النسق، على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن الأرض المتوقف عليه غايةً مطلوب أهل السفينة من الإطلاق من سجنها، ثم انقطاع ماء السماء المتوقف عليه تمام ذلك من دفع أذاه بعد الخروج ومنع إخلاف ما كان بالأرض، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متأخرٌ عنه قطعاً، ثم قضاء الأمر الذي هو هلاك مَنْ قُدِرَ هلاكه ونجاة مَنْ سبقَ نجائه، وأخرَ عما قبله؛ لأن علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم موقوفٌ على ما تقدم، ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب، ثم ختم بالدعاء على الظالمين لإفادة أن الغرق وإن عم الأرض فلم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه^(١).

(١) علي صدر الدين بن معصوم المَدَنِي (ت ١١٢٠ هـ): أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق شاکر هادي شکر، مط. النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٩ هـ-١٩٦٩ م ج ٦، ص ١٣٣. وهذا الكلام مأخوذٌ عن السيوطي بتصرف يسير: الإتيان في علوم القرآن: ج ٢، ص ٩٢٥.

وقد سبق أن بين عبد القاهر الجرجاني مزية ألفاظ آية "وقيل يا أرض ابلعي" في ارتباط بعضها ببعض وائتلافها فيما بينها، وبزهن على أنه لا يقع في وهم أن تتفاضل كلمتان مفردتان من غير أن يُنظر إلى موقعهما من التأليف والنظم، ولا تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحَةٌ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها. ولا يقولون: لفظة متمكنة ومقبولة، أو قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وعرضهم أن يُعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم. ولا يشك الناظر في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، أن ما وجدته من المزية الظاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقَت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن يستقر إليها إلى آخرها^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وعظ في ذلك بالطف موعظة، وذكر بالطف تذكرة، واستوعب جميع أقسام المعروف والمنكر، وأتى بالطباق اللفظي والمعنوي، وحسن النسق وحسن البيان والإيجاز، وائتلاف اللفظ مع معناه.

(١) انظر رأي عبد القاهر بتفصيل في كتابه: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي-القاهرة، ص: ٤٤-٤٦.

ومنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، وهي آيةٌ مُحْتَوِيَةٌ عَلَى حاجات الحيوانات كافةً، وهذا ما يُسمى بالكلمة الجامعة أو جوامع الكلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الثلاث الآيات الجامعة لجميع الأوامر والنواهي، ومصالح الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذْخِفِيهِ فِي الْكَنَفِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧] يشتمل على أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين^(١).

* * *

٨- ومن مظاهر الانسجام أيضاً اللف والنشر^(٢):

وهو أن يُذكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَكْثَرَ، إِمَّا إِجْمَالًا، أَوْ تَفْصِيلًا بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، فَمِنَ الْإِجْمَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي﴾ [البقرة: ١١١]؛ أَي قَالَتْ الْيَهُودُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وَقَالَتْ النَّصَارَى لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارِي، وَالَّذِي سَوَّغَ الْإِجْمَالَ فِي الْلَفِّ ثُبُوتُ الْعِنَادِ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ إِذْ يَقْصُرُ كُلُّ فَرِيقٍ

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروزابادي، ج: ١، ص ٧١-٧٢.

(٢) الإيقان: ج ٢/ص ٩٢٩، ومعتزك الأقران: ج ١/ص ٣١٠.

دُخُولُ الجِنةِ على فريقه وملته، فَعُرِفَ عقلاً أنه يُرَدُّ كل قول إلى فريقه لأمن اللبس. ومن التفصيل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] فالسكونُ راجعٌ إلى الليل وابتغاءُ الفضل راجعٌ إلى النهار، ومن التفصيل أيضاً: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فاللومُ راجعٌ إلى البخل، وكونه محسوراً راجعٌ إلى الإسراف.

* * *

٩- ومن مظاهر الانسجام أيضاً المشاكلة أو التشاكل^(١):

وهو ذكرُ الشيء بلفظ غيره لوقوعه في سياقه، فكلماتُ النص تدخلُ في علاقة مُشاكلة، فتكونُ كل كلمة من تلك الكلمات مُحملةً بقيود تُخصِّصُها، فترجح خصائص وتستغني عن أخرى، حتى تنسجم أجزاء الكلام، وذلك أن الكلمة في ذاتها تكونُ متعددة السمات والدلالات، ولا تتخلص من كثافتها إلا عندما تندرجُ في سياق تركيبى مُعين، وذلك لتحصيل التشاكل الدلالي (Isotopie)^(٢)، ومن التشاكل قوله تعالى: ﴿ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَأَةً وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فإن إطلاقَ النفس في جنب الله سبحانه، إنما وردَ لمُشاكلة ما معه، وكذلك المكرُ. ومثله في التشاكل بين

(١) الإلتقان: ج ٢/ص: ٩٢٩، ومُعْتَرَكُ الأقران: ج ١/ص: ٣١٠

(٢) عبد الإله سليم: بنيات المُشابهة في اللغة العربية، مُقارِبَةٌ معرفية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠١ م، ص: ٩٠.

اللفظين قوله تعالى: ﴿ وَحَزْرًا وَسَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة، ومثله: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ، ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَنُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجاثية: ٣٤] ، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩] ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].



١٠ - ومن مظاهر الأنسجام في النص القرآني: المطابقة والمقابلة:

والمطابقة الجمع بين متضادين في النص، نحو قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة: ٨٢] ، و ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٣] ، و ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتِنَا ظُحًا وَهُمْ رُفُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨] ، ومن أخفى المطابقات في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩] لأن معنى القصاص القتل، فصار القتل سبب الحياة. ومن الطباق الخفي قوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥] لأن الغرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار^(١).

أما المقابلة فتكون بذكر لفظين فأكثر، ثم أضدادها على الترتيب،

(١) الإتيان: ج: ٢ / ص: ٩٣٣-٩٣٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥-١٠]؛ قابل بين الإعطاء والبخل، والاتقاء والاستغناء، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى، ولما جعل التيسير في الأول مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق، جعل ضده وهو التعسير، مشتركاً بين البخل والاستغناء والتكذيب.

١١ - ومن مظاهر الانسجام أيضاً الوصل لفظاً الفصل معني:

هذا بابٌ جليلٌ عقّد له بدرُ الدين الزركشي فصلاً ضمن علم المناسبات، سماه: «فصل في اتصال اللفظ، والمعنى على خلافه»^(١)، ووضع له جلال الدين السيوطي باباً في أنواع علوم القرآن الكريم، وسماه «بيان الموصول لفظاً المَفْصُولَ مَعْنَى»^(٢)، وعده نوعاً مهماً وأصلاً كبيراً في الوقف، جديراً بأن يُفرد بالتصنيف، وبه يحصل حل إشكالات وكشف معضلات كثيرة^(٣).

فمن ذلك أنه قد تأتي الكلمة إلى جانب كلمة أخرى كأنها معها،

(١) البزهان: ج: ١/ص: ٥٠.

(٢) الإتيان: ج: ١ / ص: ٢٨٠-٢٨٣.

(٣) وممن أفردّه بالتصنيف حديثاً الدكتورة خلود شاكر فهيد العبدلي، في كتابها: "الموصول لفظاً المَفْصُولَ مَعْنَى"، في القرآن الكريم، من أول سورة يس إلى آخر القرآن الكريم، جمعاً ودراسةً، قدم للكتاب: مساعد بن سليمان الطيار، نشر: مركز "تفسير" للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٣١هـ..

وهي غير مُتصلة بها، وَمَنْ لَمْ يُنْعَمِ النَّظَرَ حَسَبَ جُزْأَيِ الْكَلَامِ مُتَّصِلَيْنِ لِفِظًا وَمَعْنَى، لشدة الانسجام بينهما. ومن ذلك في كتاب الله: ﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ أَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١] هذا من كلام امرأة العزيز، ثم أتى بعده كلام يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف: ٥٢]. ومثله: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤]، هذا مُنتهي قول ملكة سبأ، فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النمل: ٣٤]، ولا يجوزُ مَعْنَى أَنْ يُوَصَّلَ الْآخِرُ بِالْأَوَّلِ عَلَى أَنْ يُجْعَلَ مِنْ كَلَامٍ مُتَكَلِّمٍ وَاحِدٍ. ومثله: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدًا ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢] هنا ينتهي قول الكفار، ويبدأ قول أهل الهدى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة^(١) في هذه الآية قال: آية من كتاب الله أولها أهل الضلالة وآخرها أهل الهدى «قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا» هذا قول أهل النفاق، وقال أهل الهدى حين بُعثوا من قبورهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

فتبين من الآيات السابقة أن الموصول لفظاً المَفْصُولَ مَعْنَى: «هو مَجْجِيءُ الآية أو الآيات في السورة الواحدة على نظم واحد في اللفظ، يوهم اتصال المَعْنَى»^(٣)، والمَقْصُودُ بالاتصال اللفظي تَجَاوُزُ الْأَلْفَاظِ.



(١) وإن كان في الأمر خلاف بين المفسرين في هذه النسبة.

(٢) السيوطي: الإتقان: جزء ١/ص: ٢٨٣.

(٣) خلود شاكر فهيد العبدلي: "الموصول لفظاً المَفْصُولَ مَعْنَى"، في القرآن الكريم، ص: ٢٩.

وهكذا، فإن الحديث عن مظاهر انسجام النص القرآني وتماسك أجزائه، يُثبت أن الوحدة المعنوية - وحدة المعنى وكلية القضية - تؤثر في إحكام الوحدة البيانية الفنية، وذلك بالتقريب بين المؤلفات، حتى تتماسك وتتعاقد^(١). وعليه فإن الكلام في الموضوع الواحد إذا ساء نظمته انحلت وحدة معناه فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً، وانفصل ما كان متصلاً... فالتأليف بين الأجزاء حتى تتعالق وتتعاقد مطلب كبير يستلزم مهارة وحذقاً ولطف حس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم أو يتبوأ موقعاً وسطاً؟ ثم يحتاج مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها: بالإسناد أو بالتعليق أو بالعطف أو بغيرها؟ هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسها، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى وأنها نقيّة من الحشو قليلة الاستطراد وأن أطرافها وأوساطها تستوي في تراميها إلى الغرض^(٢). تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاءه فيما بينها اتصالاً طبيعياً، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والحذق... يتطلبه التأليف بين أمزجتها المختلفة المتفاوتة، ليصير لها مزاج واحد واتجاه واحد، وليلزم عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.

« هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس

(١) للتوسع في قضية تأثير وحدة المعنى في وحدة المبنى، يُراجع: النبأ العظيم، ص:

١٤٢-١٦٣.

(٢) النبأ العظيم، ص: ١٤٣.

الواحد. فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاوله؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً، والهوة بينها أعظم اتساعاً؟

فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر إلى السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز بقدر ما يتسع له جمال اللغة قد جعله هو أكثر الكلام افتناناً، نعني أكثره تناولاً لشؤون القول وأسرعه تنقلاً بينها، من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل، إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شؤون وشؤون؟

أو لست تعلم أن القرآن - في جل أمره - ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان ينزل بها أحاداً مفرقة على حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وأن هذا الانفصال الزماني بينها؛ والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعته مستتبعا لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها منزعاً للتواصل والترابط؟

ألم يكن هذان السببان قوتين مظهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أريد نظم طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟^(١).

(١) النبأ العظيم، ص: ١٤٤-١٤٥.

لقد كانت الآيات تنزل مُفرقةً على حسب الدواعي وأسباب النزول المتجددة، فكان الانفصالُ الزمني بينها واختلافُ أسباب نزولها يُفترضُ معه انفصالُ الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدعُ بينها منزعاً للترايط. فالنص القرآني مهما تعدد قضاياها فهو كلامٌ واحدٌ يتعلّق آخره بأوله وأوله بآخره ويترامي بجملته إلى غرض واحد.

وإن ما امتاز به النص القرآني من إيجاز في الأسلوب، جعله أكثر تناوُلًا لشؤون القول وأسرعَه تنقلًا بينها، من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد تنطوي تحته شؤون.

وهكذا فإن وراء إحكام البنيان القرآني وتماسكه تديراً مُحكماً وتقديراً مُبرماً؛ كان قد أعد لهذه المواد المتفرقة نظامها، ووجهها في مرحلة تشتمها نحو وجهتها البنائية الأخيرة التي استقرت عليها في النص القرآني، حتى صيغ منها عقد القرآن العظيم.

١٢ - ومن مظاهر الانسجام أيضاً ارتباط الجملة بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن^(١)

ومفاده أن يُبحث عن ارتباط المعنى المُستفاد من جملة قرآنية بما تفرق في القرآن من معان تلتقي لها صلةً بذلك المعنى، في موضوع

(١) هذه قاعدة ذكرها الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط. ٤، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م، ص: ١٣.

واحد، وعن ارتباطه بالمعاني الأخرى التي اشتملت عليها الآية واشتملت عليها السورة، ومواضع الالتقاء والترابط نسق يكشف عن التناسب بين معاني جمل الآية ووحدة السورة، وإهمال تدبر هذا النسق العظيم وعدم وضعه موضع العناية والاهتمام، يفوت على القارئ المتدبر معاني جمّة ووجوهاً إعجازيةً جليلاً .

وقد يكون للجُملة القرآنية التي تحمل معنى عاماً أو خاصاً شبكةً من العلاقات بعدد من جُمَل السورة، وبعدد آخر من جُمَل تُشاركها في موضوع عام في القرآن كله. فيتعين على المُحلل أن يكتشف الروابط الفكرية بين جُمَل السورة، وإن كانت خافيةً في اللفظ. من الشواهد على ذلك ما دعاه المؤلف بالتربية المُعترضة^(١)، كتربية الله لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، ويحسنُ الاعتراض حينما يُراد تحقيقُ غرض تربوي، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) [القيامة: ١٦-١٩]، فهذا اعتراضٌ بين ما سبق الآية وما جاء بعدها، ولكن مع خفاء وجه المناسبة بين الاعتراض وباقي عناصر السورة ومعانيها، ولكن حين يُكتشف الغرض التربوي الذي سبقت من أجله آية الاعتراض، يتضح جمال الانسجام في بيان الآية وموضعها، الذي أثبت لنا هذا التوجيه التربوي في سورة، هي سورة القيامة، حدث فيها حادثُ التعجل وتحريك اللسان بالقرآن، وقد امثل الرسول ﷺ فالتزم بما أمر به، ثم أنزل الله توجيهاً ثانياً في سورة طه، ولكنه متصل بما قبله وما بعده

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص: ١٦.

من الآيات: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وليس مُعْتَرِضاً بين كلامين مُتَلَازِمَيْنِ.

١٣ - من مظاهر الانسجام والتماسك في النص القرآني: بلاغة التنويع والتلوين:

قال ابن جني: «كلامُ العرب كثيرُ الانحرافات ولطيفُ المقاصد والجهات، وأعذب ما فيه تَلْفُثُهُ وتَشْنِيهِ»^(١). وقال ابن المُنِير «طريقةُ العربية تلوينُ الكلام، ومَجِيءُ الفعلية تارةً والاسمية أخرى من غير تكلف لما ذَكَرُوهُ»^(٢).

من مزايا جماليات النص القرآني أنه جَمَعَ بين الأفتنان والتنويع في الموضوعات، والافتنان والتلوين في الأسلوب، في الموضوع الواحد. فهو لا يستمر طويلاً على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلاً على هدف واحد من المعاني، بل يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى ويتنقل في المعنى الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومُضِي وحُضُور واستقبال وتكلم وغيبية وخطاب؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء، على نحو من السرعة لا عهد لنا بمثله في كلام غيره قَط. ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مَظَنَةُ الاختلاج

(١) ابن جني: الْمُحْتَسَبُ فِي تَبْيِينِ وُجُوهِ شَوَاذِ الْقُرْآنِ وَالْإِيضَاحِ عَنْهَا، تَحْقِيقٌ: عَلِيِّ النَّجْدِيِّ نَاصِفٍ وَعَبْدِ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلِ شَلْبِيِّ، لَجْنَةُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ، الْقَاهِرَةُ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج ٢/ص: ٨٦.

(٢) السيوطي: الْإِثْقَانُ، ج: ١، ص: ٦٣٣.

والاضطراب، بل مظنة الكبوة والعتار، في داخل الموضوع أو في الخروج منه، نراه لا يضطرب ولا يتعثّر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجودة السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظرًا مؤتلفًا^(١). والأصل في تلوين الخطاب الأدبي يكون بأسلوب الالتفات؛ وهو نقل الكلام من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول، وفائدته تطرية الكلام وتجديده، وصيانة السمع من الضجر والسامة، ولكن كل موضع يختص بفوائد ولطائف بحسب اختلاف محله، ونصوص القرآن الكريم مليئة بأسلوب الالتفات والتنويع بين الضمائر الثلاثة، لأغراض تخص دلالات النص، ويشتراط في أسلوب الالتفات - لضمان تماسك النص وعود آخره على أوله - أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، ويشتراط أيضاً أن يكون في جملتين.

وهناك نوع خاص من التلوين يعتمد على المغايرة والتنويع في الأسلوب؛ والميل بالنصوص والأقاويل إلى جهات شتى من المقاصد وأنحاء شتى من المآخذ، ويفتن الكلام فيها من مذاهب شتى من المعاني، وضروب شتى من المباني النظامية، ويكون للنفس فيه استراحة واستجداد نشاط بانتقالها من لون أسلوب إلى آخر، ومن معنى إلى معنى آخر، وفي ذلك قال حازم القرطاجني؛ عن الشعراء: «لما وجدوا النفوس تسأم التمادي على حال واحدة، وتؤثر الانتقال من حال إلى حال، ووجدوها تستريح

(١) النبأ العظيم، ص: ١٤٤، هامش: ١

إلى استئناف الأمر بعد الأمر واستجداد الشيء بعد الشيء، ووجدوها تنفر من الشيء الذي لم يتناه في الكثرة إذا أخذ مأخذاً واحداً ساذجاً ولم يتحيل فيما يستجد نشاط النفس لقبوله بتنويعه والافتنان في أنحاء الاعتماد به، وتسكن إلى الشيء وإن كان متناهيًا في الكثرة إذا أخذ من شتى مأخذه التي من شأنها أن يخرج الكلام بها في معارضٍ مختلفة^(١). ففي ذلك الخروج بالكلام من نوع إلى آخر، سرعان التلوين في النص، والوصول بالكلام إلى إيصال المعنى بأبلغ لفظ.

والسؤال في هذا المظهر الترابطي للنص: كيف «يكون» تنوع صور التلوين^(٢) في الأسلوب القرآني طريقة لترايط النص وتماسكه؟

والجواب أن أول شرط لتحقيق نصية النص حصول الترابط بين أجزائه وجمله، والترابط شبكة كبرى من العلاقات التي تشد أنواعاً مختلفة من العناصر، ففي النص روابط تصل مجالات الدلالات المعجمية بعضها ببعض، وروابط منطقية تربط بين الجمل.



(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص: ٢٩٦.

(٢) طه رضوان طه رضوان: تلوين الخطاب في القرآن الكريم، مكتبة الدراسات القرآنية، نشر دار الصحابة للتراث بطنطا، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص: ٣٤١.

أسلوب التلوين في دلالة الفعل على الزمن

في إطار بلاغة التنويع والتلوين في أسلوب النص القرآني، نجد القرآن الكريم يعتمد أحياناً أسلوب المغايرة والتلوين^(١) في دلالة الفعل على الزمن الواحد، نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءِ وَهَتُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) [الإسراء: ١٨-٢١]، ووجه التلوين ظاهر في الانتقال من صيغة مركبة للفعل الماضي (كان يُريد) إلى صيغة مُجرّدة منه (أراد). وفي الآيات أيضاً تلوين للأسلوب بالانتقال من صيغة المُتكلم (عجلنا-نشأ-نريد-جعلنا-نمد) إلى صيغة الغائب (عطاء ربك) ثم العوْدة إلى المُتكلم (فضلنا). وفيها أيضاً تلوين للأسلوب بالانتقال من المشيئة إلى الإرادة وهما فعلاّن مُتغايران ولكنهما مُتقاربان. ثم التلوين بين الجملة الفعلية (عجلنا) التي تُفيدُ الحدوثَ والعُبورَ، للتعبير عن جزاء حُب العاجلة، والجملة الاسمية (فأولئك كان سعيهم مشكوراً) التي تُفيدُ الثبوتَ أي ثبوتَ جزاء إرادة الآخرة.

ومما يُفيدُ التلوينَ في أسلوب الصيغ الزمنية والانتقال من زمن إلى آخر: الانتقال من الماضي إلى المُضارع، نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي

(١) طه رضوان طه رضوان: تلوين الخطاب في القرآن الكريم، ص: ٣٤٢.

أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ [فاطر: ٩]، ففيه انتقالٌ من المُضي (أرسل) إلى الحال (ثِير) ثم عَوْدٌ إلى الزَمَن الماضي (فُسُقْنَا، فَأَحْيَيْنَا)، وكأن الحال أو الاستقبال في الفعل (ثِير) لقطعةً زمنيةً بين لقطتين ماضيتين، تدل على حكاية الحال، ففي تلك اللقطة التفاتٌ بلاغي فريدٌ.

جاء الفعلُ أَرْسَلَ بلفظ الماضي لما أسندَ إلى الله تعالى؛ لأنه يُفيدُ الثبوتَ والاستمرارَ، وما يفعله تعالى بقوله: كُنْ، لا يبقى زماناً ولا جزءَ زمان، فلم يأت بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسُرعة كونه، ولأنه فرغَ من كل شيء، فهو قدرُ الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة، ولما أسندَ الإثارة إلى الريح، وهي تُؤلف في زمان، قال: «فُثِيرٌ»، وأسندَ «أَرْسَلَ» إلى الغائب، وأسندَ «فُسُقْنَاهُ»، و«فَأَحْيَيْنَا» إلى المتكلم.

ومن التلوين الانتقالُ من اسم يُقدرُ أنه معمول فعل مُضمر، إلى اسم ليس كذلك؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩]؛ فانتقل من اسم منصوب (سَلاماً) إلى اسم مرفوع (سَلام) لأن المنصوب إنما يكونُ على إرادة الفعل الناصب، أي سَلَمْنَا سَلاماً، وذلك يُؤذنُ بحدوث التسليم منهم، أما سَلامُ إبراهيم فإنه اسمٌ مرتفعٌ بالابتداء، فاقتضى الثبوت على الإطلاق، فسَلامُ الحليل أبلغُ من سَلامهم، وكأنه قصدَ أن يُحييهم بأحسن مما حيوه به^(١).

(١) ذكره السيوطي في: الإتيان في علوم القرآن، ج: ١، ص: ٦٣٣...

١٤ - من أدوات القرآن الكريم الرابطة لأجزاء النص: الضمير ووظيفة الربط:

من وظائف الضمير في اللغة العربية الاختصار، لأنه يقوم مقام الظاهر ويُغني عن تكراره، ومن وظائفه الربط ووصل الجمل بعضها ببعض، ومن وظائفه أيضاً الإحالة على سابق؛ وهي عودُه على مُتقدم بما يُغني عن ذكره وبما يربط آخر الكلام بأوله.

هذا، ولا بُد للضمير من مرجع يعودُ إليه، ويكون المَرَجُع إما مَلْفُوظاً به سابقاً مُطابقاً له، نحو قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ [هود: ٤٢]، ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: ١٢١]، أو مُتضمناً له، نحو: ﴿ أَعَدُّوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨]، فإن الفعل "اعدلوا" يتضمنُ الاسمَ المَرَجَع وهو "العدل"، أو دالاً عليه بالالتزام نحو: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر: ١]؛ أي القرآن، فإن الإنزال يدل عليه التزاماً، أو متأخراً لفظاً لا رتبةً نحو: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه: ٦٧] ، ﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤِبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]، أو متأخراً دالاً بالالتزام: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣]، فقد أضمَرت الروحُ للدلالة الحلقوم عليها. وقد يدل السياق على الاسم الذي يرجعُ إليه الضمير، فيضمَر ثقةً بفهم السامع وعلمه، نحو قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦] ، وقد يعودُ الضميرُ على لفظ المذكور دون معناه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر: ١١]؛ أي لا يُنْقِصُ من عُمرِ مُعمرٍ آخر^(١).

(١) السيوطي: الإثقان، ج: ١، ص: ٥٩٧-٥٩٩

والأصل في الضمير عَوْدُهُ عَلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، نحو: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فلكني يَعُودُ الضميرُ على أقرب مذكور في الآية أُخْرَ المفعولُ الأولُ وهو الشياطين، ليعود الضميرُ عليه لقربه، أما إن كان مرجع الضمير هو المضاف عادَ عليه الضميرُ وإن حال بينهما المضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

والأصل في الضمائر أيضاً تَوَافُقُهَا فِي الْمَرْجِعِ حَذَرَ التشتيت، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ (٣٧) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ (٣٨) ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (٣٩) [طه: ٣٧-٣٩] فالضمائر كلها راجعة إلى موسى، ولا يصح أن يزجَعَ بعضها إلى موسى وبعضها إلى التابوت لما في ذلك من هجئة التشتيت وتنافر النظم^(١).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩) [الفتح: ٨-٩]، فالضمائر في (رَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ) لله تعالى، والمراد بتعزيزه تعزير دينه ورَسُولِهِ، «وَمَنْ فَرَّقَ الضمائر فقد أبعَد»^(٢).

وقد يأتي من الضمائر ما تختلف مراجعُه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) وهذا ما رد به السيوطي على الزمخشري. انظر الإثقان: ج: ١، ص: ٦٠٠.

(٢) السيوطي: الإثقان، ج: ١، ص: ٦٠١.

رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ
مَنْهُمْ أَحَدًا ﴿ [الكهف: ٢٢]؛ فإن الضمير في الجار والمجرور (فيهم)
لأصحاب الكهف، والضمير في الجار والمجرور (منهم) لليهود^(١).

ومن قواعد عود الضمير، أنه إذا اجتمع في الضمائر مراعاة اللفظ
والمعنى، بُدئ باللفظ ثم بالمعنى، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]؛ أفرد أولاً (من يقول)،
باختبار اللفظ، ثم جمَعَ (وما هم بمؤمنين) باعتبار معنى الكلام، ومثله:
﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام:
٢٥]، ومثله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مَاذَا قَالَ ءَانفًا ﴾ [محمد: ١٦]. ومثله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

ويبدو أن الحمل على اللفظ يكون أولاً ثم يأتي بعده الحمل على
المعنى، وهو أقوى، والجمع بين الجهتين يُثبت لنا أن النص الواحد
تترابط أجزاءه لفظاً ومعنى، أو يُزاح بين اللفظ والمعنى، فيبدأ بالحمل
على اللفظ ثم يُثنى بالحمل على المعنى. وقلما يبدأ بالحمل على المعنى
ثم يُثنى باللفظ؛ فقد ذهب بعض النحويين إلى أنه إذا حمل على معنى
الجمع لا يجوز الرجوع إلى لفظ الواحد، واغترض عليه بأنه ورد في
القرآن الكريم ما يُفيد الرجوع من المعنى إلى اللفظ^(٢)، من ذلك قوله

(١) ذكره أبو العباس ثعلب والمبرد، انظر: السيوطي، الإثقان، ج: ١، ص: ٦٠١.

(٢) في ما ذكره محمود بن حمزة، أبو القاسم الكرمانى (ت. ٥٠٥هـ)، في كتابه: غرائب

تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء: ١٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الطلاق: ١١]، فقد أفرد في (ومن يطع الله، ومن يؤمن) وجمع في (خالدين فيها)، فرجع بعد الجمع إلى الأفراد. وهذا التنويع في الحمل على اللفظ أو المعنى من بلاغة القرآن الكريم ومن مظاهر تماسك نصه وأنسجামه.



١٥ - نموذج تطبيقي للانسجام والتماسك في النسق القرآني: سورة البقرة أنموذجاً، على تماسك البنيان وإحكامه^(١):

وهو أنموذج من السور المتجمعة التي التأمّت منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعاقب فيه الجمل والكلمات، فقد جمعت السورة بضعا وثمانين ومائتي آية، واشتملت من أسباب نزولها نيفا وثمانين نجما، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً. ففيها ذكر تحويل القبلة، وذكر صيام رمضان، وذكر أول قتال وقع في الإسلام فنزل بسببه قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وكل أولئك كان نزولهن في أوائل السنة الثانية

==

التفسير وعجائب التأويل، (نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم

القرآن، بيروت)، تفسير سورة البقرة: ج: ١، ص: ١٢٠

(١) مُستفاداً من كتاب النبأ العظيم، ص: ١٥٧ وما بعدها...

من الهجرة. وفيها تلك الآية الخاتمة التي نزلت في آخر السنة العاشرة من الهجرة، وهي آخر آية من القرآن: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وفيها ما بين ذلك.

وتشترك السورة وباقي سور القرآن كله في الاشتمال على جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء السورة الكريمة بعضها ببعض، وفي كل قطعة من قطع السور أسباب ممدودة، في شبكة من العلاقات المحكمة النسيج.

ولسورة البقرة خط سير إلى غاية، ووحدة نظام معنوي في جملتها، تدل عليه ما يوافقها من نظام لفظي موزع في سلسلة ذات حلقات. ولا يتصور النسق العام للسورة إلا بإحكام النظر في السورة كلها أولاً، قبل البحث عن الصلات الموضوعية بين الجزء والجزء، وهي تلك الصلات المبنوثة في مثاني الآيات ومقاطعها، فلا بد أن يُحكَمَ النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون عوناً على السير في تلك التفاصيل على بينة؛ فالسورة مهما تعدد قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية.

ويضرب الإمام الشاطبي^(١) لذلك أمثلة من بعض السور، منها سورة

(١) أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، ضبط: محمد عبد الله دراز، ط. دار المعرفة، بيروت ج: ٣، ص: ٤١٥-٤١٦.

البقرة، فهي كلام واحد باعتبار النظم، واختوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقيير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك.

والمثال على ما تقدم قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فهذا كلام واحد، وإن نزل في أوقات شتى، وحاصله بيان الصيام وأحكامه وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها ولا ينبغي إلا عليها. ثم جاء قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَطْلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] الآية، كلاماً آخر بين أحكاماً آخر.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَقِيَةٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وانتهى الكلام -على قول طائفة- وعند أخرى أن قوله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] الآية، من تمام مسألة الأهله، وإن انجر معه شيء آخر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] نازلة في قضية واحدة.

وسورة "اقرأ" نازلة في قضيتين: الأولى إلى قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: ٥] والأخرى ما بقي إلى آخر السورة.

وسورة "المؤمنين" نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات وغالب المكى أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى

واحدٌ وهو الدعاءُ إلى عبادة الله تعالى. وما ظهرَ بيادي الرأي خُروجه عنها فَرَجَعُ إليها في مَحْصول الأمر. ويتبعُ ذلك الترهيبُ والترهيبُ والأمثالُ والقصصُ وذكرُ الجنة والنار ووصفُ يوم القيامةِ وأشباه ذلك.

فَمَن الخَطأُ البَحْثُ في تلك الصلوات الجزئية مَعَ غَض النظر عن النظام الكلي الذي وَقَعَتْ عَلَيْهِ السورةُ، ففي هذا الغَض جَوْرٌ عَن القَصْد، وإغْفالٌ لِنَوَاحِي الجَمال في النظم، وإغْفالٌ لِحَسَنِ التَشاكُل بَيْن الجُملة والجُملة.

ومن مزايا القرآن الكريم النظمية في سورة البقرة:
حُسْنُ التَأليفِ بَيْنَ المُخْتلِفَاتِ:

ذَكَرَ الباقِلاني أن نَظْمَ القرآن العَجيبَ وتَأليفَه البديعَ «لا يَتفاوتُ ولا يَتباينُ، على ما يتصرفُ إليه من الوجوه التي يتصرفُ فيها، من طُكْر قِصصٍ ومَواعِظٍ واحتجاجٍ، وحكمٍ وأحكامٍ، وإغذارٍ وإنذارٍ، ووعدٍ ووعدٍ، وتبشيرٍ وتخويفٍ، وأوصافٍ... وغير ذلك من الوجوه التي يَشتمَلُ عليها. ونجدُ كلامَ البليغِ والشاعرِ المُفلقِ، والحَطيْبِ المَضقَعِ، يَخْتلِفُ على حَسَبِ اختلافِ هذه الأمور... وإذا تأملتَ شعرَ الشاعرِ البليغِ، رأيتَ التفاوتَ في شعره على حَسَبِ الأحوال التي يتصرفُ فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في مَعْنَى، فإذا جاءَ إلى غيرِه قَصَرَ عنه، ووقفَ دونَه، وبانَ الاختلافُ في شعره... ثم نجدُ من الشعراءِ مَنْ يُجودُ في الرَجزِ، ولا يُمكنُه نَظْمُ القَصيدِ أصلاً، ومنهُم مَنْ يَنظُمُ القَصيدَ، ولكن يُقَصِّرُ تَقصيراً عَجيباً، ويقَعُ ذلك من رَجزِه موقِعاً بعيداً... ومن الناسِ مَنْ يُجودُ في الكلامِ المُرسَلِ، فإذا أتى بالمؤزُونِ قَصَرَ ونَقَصَ نُقصاناً بيناً...

وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا.

وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز فيها على حد واحد لا يختلف.

وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تبأين الوجوه...»^(١).

لقد ألف القرآن الكريم كثيراً بين المعاني المختلفة في السورة الواحدة، وألقى بينها تداعياً معنوياً ونظماً، ولم يكن يستزسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يبعث على الملل، ولم يكن ينتقل من معنى إلى آخر انتقالاً يخرجُه إلى حد المفارقات التي تجمع أشتاتاً من غير نظام. فلم يكن يدع الأجناس المختلفة والأضداد المتباعدة حتى يجاوز بينها ويبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواماً لا تتلافها؛ فتقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر المختلفة أشد عناءً من تعديل أجزاء العنصر الواحد.

فالعبرة في ذلك كله: النظر إلى النظام المجموع والسلك العام

(١) أبو بكر الباقلاني إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، سلسلة ذخائر العرب (١٢)، دار المعارف، مصر، ص: ٥٤-٥٦

المُنْتَظَم. وقد ضَرَبَ الأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ دَرَاذَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، مِثْلًا بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فَهِيَ سُورَةٌ عَلَى طُولِهَا تَتَأَلَّفُ وَحَدِيثُهَا مِنْ مُقَدِّمَةٍ، وَأَرْبَعَةٌ مَقْصِدًا، وَخَاتِمَةٌ. فَأَمَّا "المَقْدِمَةُ" فَفِي التَّعْرِيفِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبَيَانِ أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَايَةِ قَدْ بَلَغَ حَدًّا مِنَ الْوُضُوحِ لَا يَتَرَدَّدُ فِيهِ ذُو قَلْبٍ سَلِيمٍ. وَإِنَّمَا يُعْرَضُ عَنْهُ مَنْ لَا قَلْبَ لَهُ، أَوْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ.

وَأَمَّا "المَقْصِدُ الأَوَّلُ" فَفِي دَعْوَةِ النَّاسِ كَافَةً إِلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا "المَقْصِدُ الثَّانِي" فَفِي دَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ دَعْوَةً خَاصَّةً إِلَى تَرْكِ بَاطِلِهِمْ وَالدَّخُولِ فِي هَذَا الدِّينِ الْحَقِّ.

وَأَمَّا "المَقْصِدُ الثَّلَاثُ" فَفِي عَرَضِ شَرَائِعِ هَذَا الدِّينِ تَفْصِيلًا.

وَأَمَّا "المَقْصِدُ الرَّابِعُ" فَفِيهِ ذِكْرُ الْوَازِعِ وَالنَّازِعِ الدِّينِيِّ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى مُلَازِمَةِ تِلْكَ الشَّرَائِعِ وَيُنْهَى عَنْ مُخَالَفَتِهَا.

وَأَمَّا خَاتِمَةُ السُّورَةِ فَفِي التَّعْرِيفِ بِالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الشَّامِلَةِ لِتِلْكَ الْمَقْاصِدِ وَبَيَانِ مَا يُرْجَى لَهُمْ فِي آجَلِهِمْ وَعَاجِلِهِمْ^(١).

هَذِهِ السُّورَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَمَقْاصِدٍ وَاخْتِتَامٍ، مِثْلَمَا تَشْتَمِلُ بَاقِي السُّورِ عَلَى الْبِنَاءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَهْمَ مَا يَطْبَعُ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ عُنْصُرُ الْاِكْتِمَالِ، آيَةً كَانَتْ أَمْ سُورَةً، وَهَذَا مَا يُعْبَرُ عَنْهُ فِي لِسَانِيَّاتِ النَّصِّ بِعُنْصُرِ الْاِخْتِتَامِ (Clôture)، وَالنَّصُّ الَّذِي لَا يُخْتَمُ بِخَاتِمَةٍ يَفْقَدُ اتِّسَاقَهُ وَغَايَتَهُ. اِكْتِمَالُ

(١) وَقَدْ بَسَطَ صَاحِبُ "النَّبَأِ الْعَظِيمِ" بَيَانَ نِظَامِ عَقْدِ الْمَعَانِي فِي سُورَةِ البَقَرَةِ، فِي سَبْعِ وَأَرْبَعِينَ صَفْحَةً: مِنْ ص: ١٦٣ إِلَى ص: ٢١٠

النص، مقومٌ من مقومات النصية، وليس طولُ النص أو حجمُه أو أبعاده
مغيّراً^(١).



وما يُقالُ في سورة البقرة يُقالُ في كل سورة من سُور القرآن الكريم،
فلكل سورة وحدةٌ موضوعيةٌ تشد أجزاء السورة وتربطُ آياتها ومعاني
جُمَلها، وما اشتمَلت عليه السورة من معان جزئية إنما هو مشتق من
الموضوع الكلي للسورة أو موصولٌ به بوجه من الوجوه^(٢).

وآخرُ دَعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله
وصحبه، وسلم تسليمًا



(١) صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: ٢٩٨، وانظر: محمد الأخضر

الصبيحي: مدخل إلى علم النص، ص: ٨٤.

(٢) قواعد التدبر الأمثل، ص: ٢٧.

لائحة المصادر والمراجع

- ابنُ جنِي (أبو الفتح): المُحْتَسَبُ فِي تَبْيِينِ وُجُوهِ شَوَازِ الْقِرَاءَاتِ وَالْإِيضَاحِ عَنْهَا، تَحْقِيق: عَلِي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شَلْبِي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م
- ابنُ خَلْدُون (عبد الرحمن): مُقَدِّمَةُ ابْنِ خَلْدُون، دار الكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بيروت، ٢٠٠٢م.
- ابنُ الْجَوْزِي (عبد الرحمن): زَاوِيَةُ الْمَسِيرِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ، تحقيق أحمد شَمْسُ الدِّين، دار الكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بيروت، ٢٠٠٢م
- ابنُ قِيمِ الْجَوْزِيَّة: مَدَارِجُ السَّالِكِينَ بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، دار الكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بيروت، ١٩٩٩م
- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عُمَرَ): تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، ط. ٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- ابن مَعْصُومِ الْمَدَنِيِّ (علي صدر الدين) (ت ١١٢٠ هـ): أَنْوَارُ الرَّبِيعِ فِي أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ، تحقيق شاکر هادي شکر، مط. النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م
- ابن هشام الأنصاري: مُغْنِي اللَّيْبِ عَنِ كُتُبِ الْأَعَارِبِ، تحقيق عَبْدُ اللطيف محمد الخطيب، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، السلسلة التراثية، ط ١، الكُوَيْت، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

أبو موسى (محمد محمد): قراءة في الأدب القديم، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط. ٣، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

الباقلاني (أبو بكر): إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، سلسلة ذخائر العرب (١٢)، دار المعارف، مصر

البقاعي (إبراهيم بن أبي بكر): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ

بوجراند (روبرت دي)، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط. ٢، ٢٠٠٧م

تاج الدين (المصطفى): التحليل اللساني وعالمية القيم الدينية، مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، ع: ٣٢-٣٣، رمضان ١٤٣١هـ / غشت ٢٠١٠م

الجاحظ (أبو عثمان):

- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مط. المديني، القاهرة، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. ٧، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

- كتاب العثمانية، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط. ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م

الجاسم (محمود حسن): مفهوم النص في العربية بين القديم والحديث، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع: ٣١، جمادى الأولى ١٤٣٢هـ / أبريل ٢٠١٠م

الجُرْجَانِي (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر،
مكتبة الخانجي، القاهرة

حازم القرطاجني: منهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب
ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

حبنكة الميداني (عبد الرحمن حسن): قواعد التدبير الأمثل لكتاب الله عز
وجل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط. ٤، ١٤٣٠ هـ /
٢٠٠٩ م

حسان (تمام):

- البيان في روائع القرآن، منشورات عالم الكتب، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣ م،

- مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط ١،
٢٠١٠

دراز (محمد عبد الله): النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، دار
الثقافة-الدوحة-قطر، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م

الرافعي (مصطفى صادق): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب
العربي، بيروت، ط. ٨، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م

سليم (عبد الإله): بنيات المشابهة في اللغة العربية، مقارنة معرفية، دار
توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠١

السمين الحلي (أحمد بن يوسف): الدر المصون في علوم الكتاب
المكنون، تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤ م.

السيف (خالد بن عبدالعزيز): ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر-دراسة نقدية إسلامية، نشر: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط ١، ١٤٣١ هـ/٢٠١٠ م

السيوطي (جلال الدين):

- مُعْتَرِك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الإثقان: تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق/بيروت، ط ٢، ١٤٢٧ هـ-٢٠٠٦ م

الشاطبي (أبو إسحاق): المُوافقات في أصول الشريعة، ضبط: محمد عبد الله دراز، ط. دار المعرفة، بيروت.

الصبيحي (محمد الأخضر): مدخل إلى علم النص، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م،

طه رضوان طه رضوان: تلوين الخطاب في القرآن الكريم، مكتبة الدراسات القرآنية، نشر دار الصحابة للتراث بطنطا، ط ١، ١٤٢٨ هـ-٢٠٠٧ م

عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط ١، ١٤٣١ هـ-٢٠١٠ م

العبدلي (خلود شاكر فهيد): "الموصول لفظاً المفصول معنى"، في القرآن الكريم، من أول سورة يس إلى آخر القرآن الكريم، جمعاً ودراسةً، نشر: مركز "تفسير" للدراسات القرآنية، الرياض، ١٤٣١ هـ..

العنواني (طه جابر): الوحدة البنائية للقرآن المجيد، سلسلة دراسات قرآنية (٣)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م
العُمري (محمد): البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط ١، ١٩٩٩م.

العَدامي (عبد الله)، تَشريح النص، مُقارَبة تَشريحية لنصوص شغرية مُعاصرة، المَزكز الثقافي العربي، ط.٢، ٢٠٠٦م
فضل (صلاح): بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنش-لونجمان، ط ١، ١٩٩٦م

الفيروزابادي (مجد الدين): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت القزطاجني (حازم): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م

الكرماني (محمود بن حمزة، أبو القاسم) (ت.٥٠٥هـ): غرائب التفسير وعجائب التأويل، نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

المتوكل (أحمد): الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر، دار الأمان الرباط، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م

الميداني (أبو الفضل النيسابوري): مَجْمَع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار المعرفة، بيروت.

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafair Center for Qur'anic Studies



كبرى القراء الكبر وعلمونه
Chair of Qur'anic Sciences

